

بناء الإيمان
من خلال القرآن

طبعة مزيّدة ومنقّحة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هجري - ٢٠٠٥ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٧٨٠/٢٠٠٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٧-٦١١٩-٥٠-٦

بناء الإيمان من خلال القرآن

مجدي الهلاي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين..
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمما لا شك فيه أن للإيمان الصادق دورًا كبيرًا في صلاح الإنسان واستقامته على أمر الله، ولَمْ لا وهو يُعد بمثابة الشجرة المباركة التي تضرب بجذورها في القلب، وتظهر ثمارها الطيبة المتنوعة على الجوارح من صدق، ووفاء، وأمانة، وتضحية، وورع، و...، وهذا يؤكد قول رسول الله ﷺ: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

معنى ذلك أن الإيمان هو الدواء الشامل لكل ما نعانيه من مشكلات، فكل ما يحدث حولنا من غلبة المفاهيم المادية، وحرص الناس على تحصيل الشهوات، وسعارهم على الدنيا، وإيثارهم أنفسهم على الآخرين وإن كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.. كل هذا ما هو إلا آثار ومظاهر لفساد القلب وضعف الإيمان فيه.

وإن أردنا صلاحًا وفلاحًا، وتغييرًا لهذا الواقع فلا بد أن نبدأ بإصلاح القلب وتمكين الإيمان منه.

فإن قلت: ولكننا نرى الكثيرين من المسلمين يملؤون المساجد، ويكثر من

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

الذكر وقراءة القرآن، ويتسابقون على أداء العمرة والحج، ومع ذلك لا نرى آثاراً طيبة للإيمان في سلوكهم، ومعاملاتهم، بل لا نكاد نفرق بينهم وبين عامة الناس.. فأين ثمار شجرة الإيمان التي تتحدثون عنها؟!

نعم، هذا واقع مُشاهد بيننا، فمن السهل أن تجد أحداً محافظاً على الصلاة، أكثر من النوافل والطاعات، وفي الوقت نفسه تجد سلوكه بعيداً كل البعد عما يتوقع أن يكون عليه، فقد تراه غليظاً مع الآخرين، يؤثر دوماً مصلحته على مصلحة غيره.. يلهث وراء الدنيا، ويسعى لتحصيل أكبر قدر منها.

هذا الواقع يؤكد أن تلك العبادات التي نؤديها بجوارحنا لم تف بالغرض الأساس للقيام بها، فلقد شرعت العبادات لزيادة الإيمان والتقوى في القلب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وعندما يزداد الإيمان في القلب من خلال الأداء الصحيح لهذه العبادات، فإن ذلك من شأنه أن يُصلح أعمال العبد؛ فيكون ذلك سبباً في استقامته على صراط الله؛ ومن ثمَّ دخوله الجنة، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة لها دور كبير في ترك الفحشاء والمنكر من خلال زيادتها للإيمان في القلب، والذي يقوم -بدوره- في منع صاحبه من اقتراف الفحشاء والمنكر.

فإن كانت العبادات لم تؤدِّ دورها في زيادة الإيمان، فلا بد أن نبحث عن السبب وراء ذلك، وهذا يستدعي منا معرفة معنى الإيمان، وحقيقته، وكيفية زيادته من خلال العبادات التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الطاعات كلها أنوار، وعندها القابلية -بإذن الله-

لزيادة الإيمان في القلب وتنويره وإصلاحه، ومع ذلك يبقى أهم مصدر لزيادته هو القرآن، وَلَمْ لَا وهو النبع المتجدد، والمنادي الذي ينادي على جميع المسلمين: أَنْ أَقْبِلُوا عَلَيَّ وَاعْتَرَفُوا مِنِّي إِيمَانًا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

قال محمد بن كعب القرظي: المنادي هو القرآن، ليس كلهم رأى النبي ﷺ^(١). والقرآن لا يقوم بزيادة لحظية للإيمان فقط، بل إنه يقوم بدور عظيم في بناء القاعدة الإيمانية العريضة، لتقوم بعد ذلك الطاعات برفع تلك القواعد وتشديد صرح الإيمان كاملاً في القلب.

وحول حقيقة الإيمان وزيادته، ودور القرآن في ذلك، وكيفية بناء صرح الإيمان من خلاله، يدور الحديث بعون الله وفضله في هذه الصفحات.

نسأل الله أن يلهمنا الرشd والسداد والتوفيق والقبول: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].



(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٥٨).

الفصل الأول

حقيقة الإيمان

حقيقة الإيمان

الإيمان - كما نعلم - محله القلب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

والإيمان هو الإقرار والتصديق.. إقرار القلب لأفكار العقل وتصديقه لها وتفاعله معها، وبدون هذا الإقرار والتصديق تظل الأفكار حبيسة العقل.

وكل ما يتفاعل معه القلب ويصدق عليه من أفكار يطلق عليه لفظ الإيمان، سواء أكان ذلك خيراً أم شراً.. خطأً أم صواباً.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

فالآية تحدثت عن طائفة من الناس مؤمنة.. ولكن بماذا؟! بالجبت والطاغوت. وهذا يفسر لنا التضحية العجيبة التي يقوم بها دعاة الباطل من أجل الترويج لباطلهم.. هذه التضحية ما هي إلا نتاج إيمان عميق وقر في قلوبهم تجاه هذا الباطل.

الإيمان مشاعر

قلب الإنسان هو الملك على جميع الأعضاء، وما من فعل إرادي يقوم به العبد إلا وينطلق من القلب.. نعم، العقل يشير على القلب للقيام بالفعل، ولكن قد يوافق القلب على ذلك وقد لا يوافق.. فإن تمت الموافقة صدرت منه الأوامر للأعضاء بالتنفيذ، ويلخص القرآن هذه الخطوات التي تؤدي إلى القيام بالفعل في قوله

تعالى: ﴿وَلْيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَيَقَرُّوْا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ (١٣٣) [الأنعام: ١١٣].

فلا بد أولاً من إصغاء القلب لصوت العقل، ثم رضاه بما يشير عليه ليتم بعد ذلك الفعل والاعتراف.

إذن القلب هو أهم عضو عند الإنسان.. قال رسول الله ﷺ: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

هذا القلب ما هو إلا مجمع المشاعر داخل الإنسان، فمشاعر الرضا، والحب، والكرهية، والفرح، والحزن، والسكينة، والطمأنينة، والخوف، والرجاء،...، تشكل البنية الأساسية للقلب، ولو تأملنا أي سلوك إرادي نقوم به لوجدناه ينطلق من مشاعرنا، فعندما تستثار مشاعر الخوف تجاه شيء ما ينعكس ذلك على السلوك بطلب الهرب منه، وعندما تستثار مشاعر الرأفة والعطف تجاه فقير أو محتاج تشد الرغبة في مساعدته.

وبما أن الإيمان محله القلب، فالإيمان إذن مشاعر، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ومعلوم أن السكينة والطمأنينة ما هي إلا مشاعر ووجدانات.

معنى ذلك أن إيمان الفرد بقضية (ما) يستلزم اتجاه المشاعر نحوها، وتفاعلها، وكلما اتجهت المشاعر وانفعلت وتأثرت بهذه القضية ازداد قدر الإيمان بها في القلب.

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

مفهوم الإيمان بالله

إذن الإيمان بالله ليس - فقط - معرفة واقتناعاً عقلياً به سبحانه، بل لا بد أن يتبع ذلك ميل قلبي وتفاعل، واتجاه لمشاعر الحب نحوه سبحانه، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وكلما ازداد اتجاه المشاعر لله عَزَّوَجَلَّ فإن هذا يعني زيادة الإيمان به.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أي أن مشاعر الحب لديهم قد استحوذ عليها حب الله عَزَّوَجَلَّ، كما في الدعاء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ لَدَيْنَا، وَخَشْيَتِكَ أَخَوْفَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَنَا..»^(١)، فمشاعر الحب والخوف والرجاء ينبغي أن يكون لله فيها أكبر نصيب، وعلى قدرها يكون مقدار الإيمان به سبحانه.. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٢).

المشاعر بين الإيمان والهوى

الهوى - كما يُعرِّفه العلماء - هو ما تميل إليه النفس من حب للشهوات والعلو على الآخرين، وكرهية المشقة والتكليف والنقد.

والهوى مثل الإيمان: مشاعر محلها القلب، أي أن مشاعر الإنسان يتقاسمها هوى النفس، والإيمان بما في العقل من حقائق، وعلى قدر استحواذ أحدهما عليها يكون تأثيره على إرادة القلب، فالطالب يريد المذاكرة، ونفسه تريد النوم أو اللعب..

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٢).

(٢) رواه أبو داود (٧/ ٦٩ برقم: ٤٦٨١).

هنا يحدث الصراع بين إيمانه بأهمية المذاكرة وضرورتها لنجاحه وتفوقه، وبين هوى نفسه وجبها للراحة وكراهيتها للمشقة، والذي سيتصير في النهاية هو الأقوى استحواذاً على المشاعر.

هذا الصراع يحدث بصفة عامة عند اتخاذ أي قرار.

وكذلك حين يريد الإنسان القيام بطاعة (ما) كصلاة الفجر مثلاً، فإن الصراع يحدث في قلبه بين إيمانه وهواه، وعلى قدر قوة أحدهما يكون الانتصار له، ويكون القرار في صالحه، ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١)، فلحظات الزنى أو السرقة أو القتل عكست انتصار الهوى على الإيمان، وقوة سيطرته على المشاعر في تلك اللحظات.

إذن فالقرارات التي تصدر من القلب للجوارح بالتنفيذ تعكس انتصار الإيمان على الهوى، أو انتصار الهوى على الإيمان.

وبمعنى آخر فإن أعمال الجوارح تدل على ما في القلب من إيمان أو هوى، فحجم الطاعات وأعمال البر التي يؤديها العبد تدل على قدر الإيمان في قلبه، فكلما ازدادت استقامة العبد في قوله وفعله فإن هذا يدل على قوة إيمانه، وفي المقابل فإن حجم الغفلات والمعاصي التي يقع فيها العبد تدل على قوة الهوى في قلبه.

أهمية الإيمان بالله

معنى ذلك أن الإيمان هو الدافع لفعل الصالحات، وعلى قدره في القلب تكون الاستقامة على أمر الله.

(١) رواه البخاري (٨/ ١٦٤ برقم: ٦٨٠٩)، ومسلم (١/ ٧٧ برقم: ٥٧).

تأمل معي قوله تعالى: ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْسُ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَى الْإِيمَانِ»^(١)، فعلى قدر الإيمان يكون الإنكار.

إذن: فأعمال العبد تكشف حجم الإيمان الذي في قلبه، ومهما ادعى المدعون، وتظاهروا بقوة إيمانهم فإن أعمالهم تصدق ادعاءهم أو تكذبه.. فإن كنت في شك من هذا فاقراً معي قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لُحٌّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَمْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ [النور: ٤٧-٥١].

معنى ذلك أنه كلما رأيت تقصيراً وغفلات ومعاصي فاستدل بذلك على ضعف الإيمان في القلب، وكلما رأيت طاعات وورعاً واستقامة فاستدل من خلالها على قوة الإيمان.

وبمعنى آخر: فإن الذي يدفع المرء إلى أن يغض بصره سريعاً عندما يشاهد امرأة لا تحل له هو الإيمان الحي اليقظ في قلبه، والذي يجعله يطيل النظر ولو للحظة هو ضعف الإيمان.

(١) رواه مسلم (١/ ٦٩ برقم: ٤٩).

والذي يدفع الشخص للورع في معاملاته هو قوة الإيمان، والذي يجعله يتساهل فيها هو ضعف الإيمان، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «ثَلَاثٌ مِنَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَحْتَلِمَ الرَّجُلُ فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ، فَيَقُومَ فَيَغْتَسِلَ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهَ، وَالصَّوْمُ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْفَلَاةِ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهَ»^(١).

الإيمان وعورات النفس

ومما يزيد أهمية الإيمان معرفة دوره العظيم في التعامل مع عيوب النفس، فلقد خلق الله عَزَّجَلَّ الإنسان، وجعل له نفساً تحب دومًا تحصيل الشهوات، والاستئثار بكل خير.. شحيحة.. لا تمنى الخير لأحد سواها..

هذه الصفات وغيرها تشكل جزءًا أساسيًا من تكوين النفس، ولا يمكن إزالتها والتخلص منها بالكلية.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن وجود هذه الأشياء له دور كبير في استمرارية حياة الإنسان، فلو انمحي داخلنا حب المال ما سعى أحد لطلب الرزق، وفي الوقت نفسه فإن المذموم هو الحب الشديد للمال ومنع حقوق الله فيه..، وكذلك فإن عزة النفس لها دور كبير في ارتفاع العبد عن النقائص، لكنها تُدَمَّ عندما تؤدي إلى إعجاب المرء بنفسه وغروره وتكبره على الآخرين.

فإن كان الأمر كذلك، فما السبيل الصحيح للتعامل مع تلك العورات؟!

الحل العملي لذلك هو الاجتهاد في ستر هذه العورات ليتحقق الأمران معًا: الاستفادة منها، واجتناب ضررها.

إن المجاري المائية -كالترع والمصارف- عندما يجف ماؤها فإن شكلها يكون

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/١٥٢ برقم: ٥١).

مقززاً من خلال ظهور التواءات والقاذورات في قاعها وجوانبها.. هذه الأشياء التي ظهرت عندما جف الماء من شأنها أن تختفي تماماً إذا ما عاد الماء إلى هذه المجاري.

كذلك عورات النفس.. فعندما يضعف الإيمان والتقوى في القلب تظهر تلك العورات، وينكشف المستور من حرص على الدنيا، وتكالب عليها.. ومن حسدٍ وأثرة، وعدم حب الخير للآخرين.. ومن اعتداد بالرأي، وانتصار للنفس.

في حين أن هذه العورات سرعان ما تختفي حين يزداد الإيمان في القلب.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِيْءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ بَعْثِكُمْ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ النَّفْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فلباس التقوى هو أفضل وسيلة لستر عورات النفس، وإن أردت مثلاً لذلك فانظر إلى سحرة فرعون الذين جاءوا من أجل المال والعلو والشرف، وما إن دخل الإيمان قلوبهم حتى سُتِرت تلك العورات، فسُمت اهتماماتهم، وتطلعوا إلى ما عند الله، وقالوا لفرعون:

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

الثمار المباركة

إذن فللإيمان الحي أثر ضخيم في حياة صاحبه، فمن خلاله تتحرر إرادة القلب من أسر الهوى.. يريد الخير فيفعله.

وكلما ازداد الإيمان استيقظ القلب من غفلته، وانتبه من رقدته، ورأى ببصيرته الدنيا على حقيقتها، وأنها حقيرة ينبغي الزهد فيها، ولاح له علم الآخرة فشمر إليه.

وكلما ازداد الإيمان سُتِرت عورات النفس، وزاد الإيثار، وقلت الأثرة، وزاد الحرص على التضحية في سبيل الله.

كلما ازداد الإيمان تحرر العبد من القيود التي تربطه بالأرض، وتمنعه من الحرية والانطلاق.

أمر كثيرة يفعلها الإيمان في قلب العبد ونفسه؛ مما يكون له أعظم الأثر على سلوكه وتعاملاته في كل الدوائر التي يتحرك فيها.

فمع نفسه تجده مُعَظِّمًا لشعائر الله، ورعًا.. تقيًا.. مبكرًا إلى الصلاة في المسجد، محافظًا على قيام الليل.. كثير الإنفاق.

ومع أهله تجده نعم الزوج لزوجته، والأب لأبنائه، والابن لوالديه، والأخ لإخوانه. ومع مجتمعه تجد أن صاحب الإيمان الحي أكثر الناس إنتاجًا في حقل الدعوة، يعيش هم أُمته، ويسعى بجهد في بناء المشروع الإسلامي.

كل هذه الثمار المباركة تظهر بتلقائية، ودون تكلف: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنْفِقِينَ﴾ [٤٤] [التوبة: ٤٤].

الإيمان وقيمة الفرد

هذه الثمار العظيمة مرتبطة بقوة الإيمان في القلب، وعلى قدر زيادته يكون حجمها وتنوعها.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قيمة الفرد عند الله لها علاقة وثيقة بمقدار إيمانه وتقواه.. ألم يقل سبحانه: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمُ﴾؟ [الحجرات: ١٣]، فمن خلال الإيمان يمكن للفرد أن يصبح وكأنه أمة في ميزان الله عزَّجَلَّ كأبي بكر

الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي لو وُضع إيمانه في كفة وإيمان الأمة في كفة لرجحت كفته. وهناك رجل يُقدَّر بألف رجل كما عدَّ عمر بن الخطاب الأربعة الذين أرسلهم مددًا لعمر وبن العاص لفتح مصر بأربعة آلاف، وكان على رأسهم الزبير بن العوام. وقد يصبح الواحد بعشرة: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وقد يصبح الواحد باثنين فقط: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَفَّفَ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فالضعف المذكور في الآية هو ضعف الإيمان، والذي تسبب في تقليل قيمة الفرد ليصبح باثنين؛ ومن ثم احتاج الأمر إلى زيادة العدد لجبر النقص.

وفي المقابل: عندما يضعف الإيمان في القلب ويسيطر عليه الهوى وحب الدنيا تنقلب الموازين وتضمحل قيمة الفرد حتى يصبح وكأنه يساوي معشار رجل، أو أقل، وأقل... ويزداد هبوطه حتى تتلاشى قيمته ليصبح المليون من أمثاله لا يساوي في ميزان الله رجلاً واحداً.

ويزداد الهبوط ويزداد حتى تصبح الأمة كلها بلا قيمة تذكر.. غناء كغناء السيل كما هو الحال الآن.

كيف يزداد الإيمان؟

إن كان للإيمان هذا الدور الخطير في صلاح الفرد والأمة، فلا بد أن يتوجه المصلحون والمربون إلى العمل على زيادته في قلوب الأفراد؛ لتظهر من خلاله تلك الآثار المباركة التي أشير إلى بعضها في الصفحات السابقة.

فإن قلت: وكيف يزداد الإيمان؟

هل زيادة الإيمان تتحقق بمجرد القيام بالطاعات والإكثار منها؟

لو كان الأمر كذلك لما وجدنا بعض المحافظين على الصلوات في المساجد يطففون في الميزان، ويجنحون نحو عدم قول الصدق حين تتعارض معه مصالحهم الشخصية، ويغضبون ويثورون حين تمس ذواتهم بنقد أو عتاب.

معنى ذلك أن سلوك العبد ومدى استقامته على أمر الله هو خير دليل يدل على انتفاعه بما يؤديه من أعمال صالحة، بمعنى أنه لو قامت هذه الأعمال بزيادة إيمانه لانعكس ذلك على سلوكه بصورة تلقائية كما قال تعالى: ﴿لَا تَبْذُرُوا الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فدور الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر إنما يكون من خلال زيادتها للإيمان في القلب، ليكون هذا الإيمان هو الدافع لترك الفحشاء والمنكر، فإن لم يصاحب الصلاة تحسن في السلوك وترك المنكرات فإن ذلك يدل على عدم زيادتها للإيمان في القلب.

إذن فالقضية ليست في كثرة طاعات وأعمال جوارح فقط، بل لا بد أن يتقصد المرء من خلالها زيادة الإيمان.. فكيف يتم ذلك؟!

هنا تبرز قيمة معرفة حقيقة الإيمان ليتسنى لنا أن نعرف كيفية زيادته.

حقيقة الإيمان

كما قيل في الصفحات السابقة إن الإيمان محله القلب، والقلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان، وإن هذه المشاعر يتقاسمها الإيمان والهوى، وصاحب

النصيب الأكبر هو الأكثر سيطرة على القلب وقت اتخاذ القرار.

إذن فزيادة الإيمان تعني تخلص جزء من المشاعر من سيطرة الهوى واتجاهها لكفة الإيمان.

وكما نعلم أن تجاوب المشاعر مع أمرٍ ما يعني تأثرها وانفعالها.. معنى ذلك أن لحظات التأثر والانفعال مع أمر يخدم الهوى - كمن يستمع إلى أغنية مثلاً - من شأنه أن يزيد مساحته في القلب، وفي المقابل فإن لحظات التأثر والانفعال مع حقيقة من حقائق الإيمان تعني زيادة مساحته في القلب، وكلما استمر التأثر استمرت الزيادة.

إذن فزيادة الإيمان التي من شأنها أن تُحدث الأثر الطيب في السلوك تعني التأثر والانفعال، وتجاوب القلب مع ما يفكر فيه الإنسان من حقائق إيمانية.

من هنا يتضح لنا أن الإيمان إذا كان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإن الطاعة التي تزيد الإيمان هي الطاعة التي يتحرك فيها القلب وينفعل بها ويتجاوب معها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

وفي المقابل فإن عدم تجاوب القلب مع الطاعة - مهما كثرت - يعني عدم زيادتها للإيمان فيه، ومن ثم عدم تحسن السلوك، فالعبرة إذن ليست بكثرة الطاعات ولكن بمدى تحرك القلب معها لذلك كان الحث القرآني للمؤمنين بضرورة خشوع قلوبهم مع الذكر حتى لا يضمحل فيها الإيمان وتقسو، وتصبح كقلوب أهل الكتاب: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسِخُوتٌ ۝ ﴾ [الحديد: ١٦].

فإذا ما وضحت هذه الحقيقة كان الطريق ممهّداً لمعرفة كيفية زيادة الإيمان.

الإيمان قول وعمل

الإيمان بالله يبدأ بتوجه جزء من مشاعر العبد له سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، هذا الجزء يحتاج إلى تنمية وزيادة مستمرة حتى تتخلص المشاعر من أسر الهوى والظلمة، وتنتقل إلى دائرة الإيمان والنور، وفي هذا الشأن يَقُولُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدَأُ لُمَظَّةً بَيَضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا زَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا، زَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانُ أَيْضَ الْقَلْبِ كُلَّهُ، وَإِنَّ التَّفَاقَ يَبْدَأُ لُمَظَّةً سَوْدَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا زَادَ التَّفَاقُ عِظَمًا، زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ التَّفَاقُ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّمِ اللَّهُ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَيْضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ»^(١).

فإن كان الأمر كذلك فما السبيل إلى تنمية الإيمان في القلب واستكمالها؟!

مما لا شك فيه أن السبب الأساس لزيادة الإيمان هو العمل الصالح، فالعمل الصالح بالنسبة للإيمان كالماء للزراع؛ لذلك نجد الخطاب القرآني الموجه للمؤمنين يقرن بين الإيمان والعمل الصالح، باعتبار أن وجود الإيمان في القلب دون أن يصاحبه عمل صالح، من شأنه أن يجعل الإيمان في دائرة ضيقة في القلب؛ ومن ثم تستمر سيطرة الهوى والظلمة عليه.

يقول الحسن البصري: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ، وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ، رَدَّهَ اللَّهُ عَلَى قَوْلِهِ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ عَمَلُهُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]»^(٢).

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٤٤ برقم: ٣٧) واللمظة: الشيء اليسير.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٨ برقم: ٦٥).

إذن لا بد من القيام بالأعمال الصالحة حتى يزداد الإيمان في القلب وينمو، وذلك من خلال تجاوب المشاعر مع تلك الأعمال.. وكما حدث التجاوب تخلصت المشاعر من جزء من الهوى، وانتقلت إلى كفة الإيمان، وبهذا يزداد الإيمان بالعمل الصالح.

عَنْ عُمَيْرِ بْنِ حَبِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَقِيلَ: وَمَا زِيَادَتُهُ، وَنُقْصَانُهُ؟!

قَالَ: إِذَا ذَكَّرْنَا رَبَّنَا وَخَشِينَاهُ فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَنَسِينَا وَضَيَّعْنَا فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ^(١).

من هنا يتأكد أنه من الضروري القيام بالأعمال الصالحة حتى يزداد الإيمان في القلب وينمو، وتخلص المشاعر من أسر الهوى.

وعندما يغفل العبد عن هذه الحقيقة، ولا ينتهز فرصة دخول الإيمان إلى قلبه، وذلك بالعمل على زيادته وتوسيع دائرته، فإنه بلا شك سيندم أشد الندم على تضييعه لفرصة عظيمة كانت في يده.

ولقد عبر القرآن عن حال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانُ مَا كَانَتْ تَكُنُّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

لا بد -إذن- من استثمار الحالة الإيمانية التي يمر بها العبد بترسيخها وتنميتها في القلب من خلال القيام بأعمال مصاحبة لها.

(١) المصدر السابق (١/ ١٥٤ برقم: ٥٥).

الإيمان أولًا

نعم، الإيمان أولًا، بمعنى أنه لا بد أن يكون هناك إيمان حيّ يقظ في القلب تنطلق منه الأعمال الصالحة الخالصة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لتعود تلك الأعمال على القلب بزيادة في إيمانه، وهذا ما يؤكدُه جُنْدُبُ الْبَجَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «كُنَّا فِتْيَانًا حَزَازَةً مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»^(١).

ومعنى تعلمنا الإيمان قبل القرآن، أي كان التركيز منصبًا على كيفية اتجاه المشاعر لله عَزَّوَجَلَّ، ودخول النور إلى القلب من خلال المعاني الإيمانية التي يدل عليها القرآن، ويستثير من خلالها المشاعر، فتتأسس بذلك القاعدة الإيمانية؛ لتأتي الأوامر القرآنية بعد ذلك منطلقة منها فيزداد القلب إيمانًا.

وخلاصة القول أن دخول الإيمان إلى القلب يبدأ بشيء يسير ويحتاج إلى تعهد وتنمية.. وهذا يأتي من خلال الأعمال التي يتجاوب معها القلب، فالتفكير مثلاً عبادة عظيمة من شأنها أن تستثير المشاعر وتزيد الإيمان، ولكن تظل هذه الزيادة في نطاق محدود ما دام لم يصاحبها عمل.. فإن صاحبها عمل كالذكر وتجاوب القلب ازداد الإيمان.

يقول الحسن البصري: «إِنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ لَمْ يَزَالُوا يُعَوِّدُونَ بِالذِّكْرِ عَلَى الْفِكْرِ، وَبِالْفِكْرِ عَلَى الذِّكْرِ، حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ قُلُوبُهُمْ فَتَنَطَّقَتْ بِالْحِكْمَةِ»^(٢).

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٢ برقم: ٥٠)، والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٦٥ برقم: ١٦٧٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ١٩).

والاستماع إلى القرآن من صوت ندي خاشع قد يؤثر في القلب ويهز المشاعر، ويزيد الإيمان، ولكن هذه الزيادة ستكون أكبر وأعمق أثرًا لو تأثر القارئ من قراءته هو، لا من قراءة غيره.

والتفكير في أمر اليتيم يؤثر في القلب ولكن بصورة محدودة، فإذا صاحب ذلك مسح شعره والبشاشة في وجهه؛ رق القلب، وازداد الإيمان كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَلِينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمِ الْمُسْكِينِ وَأَمْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»^(١).

مع الأخذ في الاعتبار أنك لو مسحت على رأس اليتيم دون أن يسبق ذلك تفكير واستشارة للمشاعر فلن يؤدي الأثر المطلوب، وإن استثيرت مشاعرك عند رؤيته دون مسح رأسه فستكون الزيادة الإيمانية محدودة، وقس على ذلك الكثير من الأعمال، فالذكر دون حضور قلب تأثيره قليل الفائدة، والتفكير في الذنوب الماضية له أثر محدود على القلب إن لم يصاحبه استغفار ودعاء وتوبة باللسان، وهكذا.

أهمية التذكرة

من الضروري -إذن- اقتران الإيمان والعمل الصالح..

أو بمعنى آخر: تأثر المشاعر وتجاوب القلب بمعنى إيماني، وأن يصحب ذلك عمل يزيد الإيمان ويرسخه في القلب.

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣ برقم: ٧٥٦٦)، والبيهقي (٤/ ٦٠ برقم: ٧٣٤٥).

فتذكر الموت يهز المشاعر ويزيد الإيمان ولكن بصورة محدودة، فإن صاحب ذلك زيارة للمقابر ازداد الإيمان وازداد.

لا بد من تهيئة قلبية واستشارة للإيمان أولاً ثم العمل ثانياً، فإذا تم العمل قبل التهيئة كان الأثر ضعيفاً.. من هنا تأتي أهمية التذكرة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكرة تستثير الإيمان وتدفع للعمل الصالح وتجعله سبباً لزيادة الإيمان من خلال تجاوب المشاعر المستشارة معه، مع العلم بأن التذكرة تنفع من في قلبه إيمان؛ فتستثير إيمانه وتدفعه للعمل الصالح فيزداد به إيماناً، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿سَيَذَكِّرْهُم بِمَخَشْيَةِ﴾ [الأعلى: ١٠] وقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فالمطلوب إيمان يدخل القلب.. وتذكرة تستثيره.. وعمل مصاحب يزيده، ولقد أكد القرآن على هذه الوسائل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

التذكير قبل التوجيه

التذكير له أهمية كبيرة في زيادة الإيمان، مع الأخذ في الاعتبار أن التذكرة المطلوبة هي التي تستثير المشاعر فتؤججها، وتضرب على أوتار القلوب فتلهبها^(١).

(١) الوسائل التي يمكننا استخدامها لكي تكون التذكرة مؤثرة كثيرة، منها: التذكير بأهمية العمل وفضله وما يتحقق من ورائه، ومنها: استخدام القصة، وضرب الأمثال، وكذلك الصور المرئية، فالصورة لها قدرة عجيبة على النفاذ إلى المشاعر.. وكذلك المشاهد المؤثرة =

التذكرة المطلوبة هي التي تُذكر العقل بما نسيه من حقائق الإيمان، وتمزجه بمخاطبة العاطفة فتستثيرها، وتجعلها في حالة من التوقّد والاستعداد للعمل.. فإذا ما تم ذلك كان من المناسب ربط هذه الحالة بعمل مصاحب حتى يزداد الإيمان ويرسخ في القلب، ولقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك مع الصحابة، يُذكرهم ويؤجج مشاعرهم، ثم يوجههم للعمل المطلوب.

انظر إليه ﷺ قبل بدء معركة بدر وهو يقول لأصحابه: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، فاستثيرت المشاعر، وتاقت النفوس إلى الجنة، وَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: بَخَ بَخَ، فَقَالَ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخَ بَخَ» قال: إي، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قال: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، (فازدادت مشاعره استشارة) فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَيْنَ أَنَا حَيْثُ حَتَّى أَكَلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ^(١).

أرأيت ماذا يفعل الخطاب المؤثر في المشاعر؟

تخيل نفسك -أخي الحبيب- وكأنك مع الصحابة الكرام تستمع إليه ﷺ وهو يقول: «أَلَا مُشَمَّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ -وَرَبُّ الْكَعْبَةِ- نُورٌ يَتَلَأَلُّ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدٍ، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ». قَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمَّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَقَالَ الْقَوْمُ:

= كرؤية أهل البلاء، ومنها كذلك المواعظ والصوت المؤثر الشجي.

(١) رواه مسلم (٣/ ١٥٠٩ برقم: ١٩٠١).

إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١)... ثم بعد ذلك ذكر الجهاد في سبيل الله.. كيف سيكون حالك وأنت تستمع إلى هذه الكلمات؟! وكيف سيكون تشوقك للجهاد في سبيل الله؟! بمثل هذا يكون التذكير قبل التوجيه.. أن يخاطب ذلك التذكير المشاعر حتى يستثير الإيمان، ليأتي العمل بعد ذلك مؤكداً لهذا الإيمان ومسبباً لزيادته.

والم تأمل للقرآن يجده يستخدم هذه الطريقة الفريدة في مواضع متعددة، تأمل قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ في سورة الضحى وهو يُعَلِّي من قدره ويذكره بفضلله عليه، ثم يوجهه بعد ذلك بتوجيهات مختلفة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۚ﴾ (٨) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ ۚ﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۚ﴾ (١٠) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ [الضحى: ٦-١١]، وكذلك قوله تعالى على لسان الملائكة لمريم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فهذا تذكير وتشجيع يستثير المشاعر.. ليأتي التوجيه في الآية التالية: ﴿يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ويقص علينا القرآن طريقة موسى عَلَيْهِ السَّلَام في التذكير قبل التوجيه في مواجهاته مع بني إسرائيل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١].



(١) رواه ابن ماجه (٣٨٠ / ٥) برقم: (٤٣٣٢)، والبزار (٤٣ / ٧) برقم: (٢٥٩١)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٩ / ١٦) برقم: (٧٣٨١)، والطبراني في الكبير (١ / ١٦٢) برقم: (٣٨٨)، والضياء في المختارة (٤ / ١٣٢) برقم: (١٣٤٣) وقال: إسناده حسن.

الفصل الثاني

كيف نزداد بالطاعات إيمانًا؟

كيف نزداد بالطاعات إيماناً؟

شرع الله عَزَّجَلَّ الطاعات ليزداد العبد من خلال القيام بها إيماناً: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ
اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وكلما ازداد العبد إيماناً ازداد قربه من ربه: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

مع التذكير بأن العبادة التي تزيد الإيمان هي التي يتجاوب معها القلب ويتحرك، سواء أكان هذا التحرك في صورة خشوع، أم تضرع، أم إخبارات، أم وجل، أم طمأنينة...

فالدعاء - على سبيل المثال - عبادة عظيمة، ولكن لكي يزداد به الإيمان - بإذن الله - لا بد من حضور القلب معه كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فتحرك القلب مع الطاعة هو الذي يجعله ينتفع بها ويزداد إيماناً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْثَقُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فعندما تجاوب هؤلاء مع القرآن وتحركت قلوبهم معه، وسجدوا وسبحوا، وبكوا، ازدادوا بذلك خشوعاً.

مقياس زيادة الإيمان

المؤشر الصحيح لزيادة الإيمان أو عدم زيادته بعد القيام بالطاعة هو تحسن السلوك، فكما قيل سابقاً أن الإيمان هو الدافع للأعمال، وكلما ازداد الإيمان ازداد

الدافع لفعل الصالحات، فإذا ما أدى العبد الطاعة، وتحرك قلبه معها، ازداد إيمانه، فتحسن تبعاً لذلك سلوكه.

فالصلاة والذكر وقراءة القرآن والصيام والحج والعمرة.. كل هذه العبادات تزيد الإيمان إذا تحرك القلب معها وانفعلت المشاعر، فإذا ما تم ذلك ظهرت الآثار الياقة في السلوك.

معنى ذلك أن المقياس -بالأساس- هو السلوك، فإن تحسن بعد القيام بالطاعة دل ذلك على أنها قد قامت بدورها في زيادة الإيمان.

وفي المقابل، فكلما وجدنا طاعات كثيرة وأعمال صالحة دون أن يصحب ذلك تأثير وتحسن إيجابي في السلوك؛ دل ذلك على أن هذه الطاعات لم يتحرك معها القلب، ولم يزد فيه الإيمان، وإنما أدت فقط بالجوارح والعضلات، فلم تحقق مقصودها العظيم وهو زيادة الإيمان والتقوى في القلب.. والله أعلم.

أهمية الزيادة المستمرة للإيمان

من طبيعة الإنسان النسيان، وكلما نسي الإنسان حقيقة وجوده في الدنيا، ونسي أنها دار امتحان؛ وكلما غفل عن الله عزَّجَلَّ.. وجدت النفس مجالاً لتنفيذ طلباتها من حب للراحة وكراهية للتكليف، ووجدت الدنيا فرصتها للتزُّين أمام العبد، ووجد الشيطان مجالاً خصباً للوسوسة والإغواء.

كل ذلك من شأنه أن يقلل الإيمان في القلب، ويجذب المشاعر تجاه الهوى، وكلما ضعف الإيمان انعكس ذلك على السلوك.

من هنا اشتدت الحاجة إلى وجود منابع ووسائل مستمرة تزيد الإيمان في القلب وتمكنه منه.

ومما لا شك فيه أن الدور الأسمى للطاعات هو تعويض نقص الإيمان، وإمداد القلب بأسباب حياته ويقظته باستمرار، وإطفاء نار الذنوب والغفلات.. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا إِلَىٰ نِيرانِكُمْ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَأَطْفِئُوهَا بِالصَّلَاةِ»^(١).

فالعبادات تزيد الإيمان والتقوى، وتزيل أثر المعاصي والغفلات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

نعم، هذا هو دور العبادات التي شرعها الله عَزَّجَلَّ للعباد، ولكن تبقى أهمية الإتيان بها بالطريقة التي تزيد الإيمان، وإلا لما أدت المقصود منها، فالذكر وسيلة مهمة لزيادة الإيمان ولكن -من الأهمية بمكان- أن يصحبه وجل وخشوع في القلب: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

والصلاة وسيلة عظيمة لزيادة الإيمان، ولكن لا بد من حضور القلب وخشوعه معها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وكذلك الحج: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقراءة القرآن: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِثْقَالِي نَفْسٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٣ برقم: ٩٤٥٢)، والصغير (٢/ ٢٦٢ برقم: ١١٣٥)، وحسن إسناده الضياء المقدسي في المختارة (٧/ ١٦٢ برقم: ٢٥٩٢).

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿[الزمر: ٢٣]﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿قَدْ أَفَاءَ عَرِبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿[الزمر: ٢٧، ٢٨].

فالتطاعات كلها أنوار، ومنابع لزيادة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «... الصَّلَاةُ نُورٌ؛ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ؛ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ...»^(١).

ولكن يبقى سؤال وهو: كيفية تفعيل هذه الطاعات وجعلها أداة لزيادة الإيمان، مع وجود عوامل مضادة تعمل باستمرار على إضعاف الإيمان والتمكين للهوى.

إيقاظ الإيمان هو البداية

كما قيل سابقاً بأنه لا بد من وجود إيمان حي في القلب؛ ليكون دافعاً للقيام بالأعمال الصالحة.

معنى ذلك أنه لا بد من إيقاظ قدر الإيمان الموجود في القلب أولاً؛ ليتم من خلاله تفعيل الطاعات والاستفادة منها في زيادة الإيمان، وأهم وسيلة لإيقاظ الإيمان في القلب هو الخوف من الله، فالخوف كالسيّاط توقظ القلب من غفلته، وتصل به لمرحلة الانتباه قال ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ...»^(٢).

يعلق المناوي في فيض القدير على هذا الحديث فيقول: فكل من خاف الردى، وفوت ما يتمنى لا يركن إلى الراحة ولا ينتظر الصباح، بل يبادر إلى الحركة والسفر

(١) رواه مسلم (١/٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم (٤/٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

ولو كان بالليل، فأخبر ﷺ أن الخوف من الله هو المقتضي للسير إليه بالعمل الصالح والمشار إليه بالإدلاج^(١).

ويأتي مع وسيلة الخوف من الله كذلك وسيلة أخرى من شأنها أن توقظ القلب من غفلته، ألا وهي شدة الشوق إليه سبحانه، فعندما تستثار مشاعر الشوق إلى الله فإن هذا من شأنه أن يثمر انتباهاً وسعادة بالطاعة والمبادرة إلى القيام بها. قال ابن عطاء: لا يُخرج الشَّهْوَة مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعَجٌ أَوْ شَوْقٌ مُثْقِلٌ.

انتبه

الخوف من الله له أهمية كبيرة في توجيه مشاعرنا نحوه سبحانه، وإيقاظ القلب من غفلته، لكنه لا يكفي وحده لتشييد بناء الإيمان في القلب... لماذا؟! لأن الخوف جزء من مشاعر الإنسان، والمطلوب تعبيد وجذب كل المشاعر إلى الله، مثل: مشاعر الحب والشوق والرضا والإحبات، والفرح والطمأنينة.. هذه المشاعر تحتاج إلى وسائل تستثيرها وتوجهها نحوه سبحانه، وإلا انحصر الإيمان في دائرة ضيقة... وكذلك فإن الشوق إلى الله وحده لا يكفي لتشييد بناء الإيمان في القلب لنفس هذا السبب.

ومما يؤكد هذا المعنى أن الواقع المشاهد بيننا ينبئنا بأن هناك البعض ممن نجده خائفاً وجلاً سريع البكاء عند سماع آيات العذاب، ولكنه في الوقت نفسه لا يتعامل مع الأقدار المؤلمة بنفس راضية، بل بنفس فزعة هلعة ساخطة، وقد تجده كذلك يحب المال حباً جماً، يفرح لزيادته ويحزن لنقصانه، وقد تجده شديد التعلق

(١) فيض القدير للمناوي (٦/ ١٥٩) دار الكتب العلمية - بيروت.

بالأسباب... هذا التناقض يدل على أن إيمانه بالقضاء والقدر، وبقيمة الدنيا، وعلاقة الأسباب بالمسببات لم يرق إلى مستوى إيمانه بضرورة الخوف من الله والحذر من عذابه.. والله أعلم.

أركان الإيمان

وبالإضافة إلى محدودية دوري الخوف والشوق إلى الله في زيادة الإيمان من جميع جوانبه، فإن هناك أمرًا آخر له أهميته القصوى، وهو أننا مطالبون بتحقيق أركان الإيمان في قلوبنا.

المطلوب أن نُشيد ببيان الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته كاملاً، وكذلك الإيمان بالله واليوم الآخر والقدر والملائكة والكتب والرسل.

وكما قيل سابقاً فإن المعرفة العقلية لهذه الأركان لا تكفي، بل لا بد أن تمتزج معها العاطفة لتصبح إيماناً راسخاً في القلب، تعبر عنه المشاعر ويُظهره السلوك، فيرضى العبد بقضاء الله، ويستسلم لمشيئته، ويفرح بفضله، ويأنس به، ويفزع إليه، ويهابه ويعظمه... يحب فيه، ويبغض فيه، ويغضب من أجله.

كل هذه مشاعر إيمانية لا بد من حضورها في القلب، ومما لا شك فيه أن التركيز على وسائل استجلاب الخوف أو الشوق إلى الله لا يمكنه أن يؤدي هذه الوظيفة بمفرده.

من هنا كان من الضروري تعلم الإيمان والاجتهاد في تشييد بنيانه كاملاً في القلب.

لا بد من البحث عن وسائل تؤسس القاعدة الإيمانية باتساعها لتنتقل منها

الأعمال والطاعات، وليعود بعد ذلك أثرها عليها فترتفع وتبني صرح الإيمان في القلب.. وهنا يأتي دور المعجزة الكبرى: ألا وهي القرآن الكريم الذي يقوم بهذه المهمة على خير ما يكون.



الفصل الثالث

القرآن ودوره في تأسيس

القاعدة الإيمانية

القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي اختص الله عزَّجَلَّ بها أمة محمد ﷺ.

هذه المعجزة هي أعظم معجزة نزلت من السماء، ويكمن سرها في قدرتها على تغيير من يُحسن التعامل معها، فيُصبح من خلالها عبداً صالحاً مخلصاً لله عزَّجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

والتغيير الذي تُحدثه المعجزة القرآنية يشمل جميع جوانب الشخصية الإنسانية ليضعها في القلب الذي يريده الله منها.. فيغير ثوابت الإنسان ومعتقداته الخاطئة، ويبنى اليقين الصحيح في عقله لتنتلق تصوراتاه واهتماماته في الاتجاه الذي يريده الله منه.

ومع التغيير الذي يحدثه القرآن في العقل فهو كذلك يؤسس القاعدة الإيمانية في القلب، ويُخلص المشاعر من الهوى وحب الدنيا؛ مما يجعله أحد أهم أسباب زيادة الإيمان إن لم يكن أهمها على الإطلاق: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن هو المنادي الذي ينادي على الناس أن أقبلوا عليّ وتزودوا مني بالإيمان: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فالمنادي المذكور في الآية كما قال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: هُوَ الْقُرْآنُ، لَيْسَ كُلُّهُمْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ^(١).

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٨٥).

طريقة القرآن في زيادة الإيمان

وطريقة القرآن في زيادة الإيمان طريقة فريدة، تشمل الكثير من الأساليب، ولا يمكن للعقل البشري القاصر أن يحيط بها، ولقد ضرب الله عَزَّجَلَّ لنا مثلاً للأثر الذي يمكن للقرآن أن يحدثه في الجماهير ليكون مشوقاً لنا، ودافعاً للتعامل الصحيح مع القرآن والانتفاع بمعجزته:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الحشر: ٢١].

إن قدرة القرآن الفذة على زيادة الإيمان، وتعبيد المشاعر لله لا نظير لها، -وإليك أخي القارئ- بعضاً من الوسائل التي يستخدمها القرآن لتحقيق ذلك:

أولاً: القرآن يعرض جميع حقائق الوجود، وما ينبغي الإيمان به، وذلك بأسلوب فريد، يمزج الفكر بالعاطفة، فيخاطب العقل ويقنعه، وفي الوقت نفسه يخاطب المشاعر ويؤثر فيها لتتحول القناعة بالفكرة التي يطرحها إلى إيمان قلبي.

فعلى سبيل المثال: القرآن يبين عند المسلم عقيدة أن الله شديد العقاب، وسريع الحساب، وأنه يستطيع أن يعاقب الناس بما أحدثوه في أي وقت... هذا المعنى تكرر في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

فالآيات تعرض هذه الحقيقة وفي الوقت ذاته تمزج الفكر بالعاطفة، وتستثير مشاعر الخوف والحذر داخل الإنسان.

وإليك مثلاً آخر يؤسس الإيمان باليوم الآخر من خلال استثارة مشاعر الخوف في القلب: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

ثانياً: تكرار المعنى

القرآن يكرر الكثير من المعاني التي ينبغي الإيمان بها، والتي يقوم عليها التصور الإسلامي الصحيح، وذلك في آيات كثيرة وبأساليب مختلفة؛ ليرسخ مدلولها في العقل، وتُصبح يقيناً ثابتاً فيه، ويتأكد الإيمان بها في القلب، وتشكل جزءاً ثابتاً يتشابك مع مشاعره؛ مما يُسهّل استثارته في أي وقت.

فعلى سبيل المثال: الحديث عن الدنيا وقيمتها وأنها متاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى، تكرر كثيراً في القرآن، وبطرق وأساليب متعددة تخاطب الفكر، وتؤجج المشاعر، ليزداد الإيمان في القلب من خلال التجافي عنها والزهد فيها، والسعي نحو الآخرة، انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]. فلقد تكررت هذه الآية، ووردت بقوالب مختلفة.. كل ذلك ليرسخ مدلولها في النفس.

ثالثاً: استخدام أساليب شتى في التأثير على المشاعر: مثل المواعظ البليغة التي تنفذ مباشرة إلى قلب الإنسان وعواطفه، سواء أكان ذلك بالترغيب أم التهيب أم بالاثنتين معاً، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

● ومن وسائل التأثير على المشاعر: القصة والتي من شأنها أن تجذب عقل الإنسان وقلبه. والناظر للقرآن يجده مليئاً بقصص السابقين: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

● ومن وسائل التأثير على المشاعر: بيان فضل العمل وأهميته وما يعود به على الإنسان من نفع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

● ومنها كذلك: التذكير بالماضي وبما أنعم الله به على العبد فتستثار مشاعره تبعاً لذلك؛ مما يجعل من السهل توجيهه ودفعه إلى العمل المطلوب، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِيلُكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

● ومع هذه الوسائل يأتي سلطان ألفاظه الذي يأسر النفوس كوسيلة في التأثير على المشاعر واستثارتها، وليس أدل على ذلك من الحالة التي عاشها المشركون وهم يستمعون إلى سورة النجم، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ^(١).

رابعاً: والقرآن عندما يستثير المشاعر فإنه يولد طاقة في النفس تدفع صاحبها للقيام بأعمال البر المختلفة... هذه الأعمال عندما تنطلق من الإيمان الحي المتولد من القرآن، فإن من شأنها أن تعود بالأثر الطيب على القلب بزيادة ونمو الإيمان فيه،

(١) البخاري (٢/ ٤١ برقم: ١٠٧١).

وذلك حسب العمل الذي يقوم الإنسان به... فعندما يشرع العبد في الذكر كالتمسيح مثلاً، ويتحرك قلبه معه فإن أثره يعود على القلب بزيادة التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ... أما الحوقلة فتزيد شعوره وإيمانه بالافتقار إلى الله وعظيم الحاجة إليه، هذا بالنسبة للذكر، أما الصلاة فعندما تنطلق من القلب الحي والإيمان اليقظ ويحدث التجاوب فيها بين القلب واللسان والجوارح، فإن من شأنها أن تزيد في القلب الهيبة والإجلال والتواضع والانكسار لله عَزَّوَجَلَّ... وهكذا..

فالقرآن يبني القاعدة الإيمانية باتساعها، ويولد الطاقة، ويدفع للقيام بالأعمال الصالحة ليعود أثرها على القلب بزيادة الإيمان فيه.

أهمية القرآن

من هنا يتضح لنا الأهمية العظمى للقرآن كمنبع عظيم للإيمان لا يعدله شيء.. هذا المنبع كفيلاً - بإذن الله - بتأسيس القاعدة الإيمانية في القلب باتساعها وعمقها، وفي المقابل فكتب العقيدة التي تطرح بعض ما في القرآن وتتوسع فيه لا تنشئ إيماناً بمعناه الحقيقي الذي يرسخ في القلب ويؤسس قاعدته باتساعها فيه، ويتناول جميع مشاعره.. وكيف لا؟! وقيمة وقدر ومعجزة القرآن الحقيقية لا يمكن للعقل البشري القاصر أن يدركها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط هنا محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

ظلمنا أنفسنا

أخي القارئ:

لقد ظلمنا أنفسنا أيما ظلم عندما لم نُعطِ القرآن حقه في تأسيس القاعدة

الإيمانية داخل قلوبنا، ولم نسمح لمعجزته بالقيام بدورها في إحداث التغيير الجذري داخل ذواتنا.

ظلمنا أنفسنا عندما اكتفين من هذا الكنز العظيم بالبحث عن الأجر والثواب والبركة المترتبة على تلاوته أو حفظه، واهتمنا بلفظه وشكله فقط، دون أن يصاحب ذلك اهتمام بالمعنى، وتعلم الإيمان من خلاله، وتذوق حلاوته وتأسيس قاعدته في قلوبنا كما كان يفعل أسلافنا: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ألم يأن لنا -أخي الحبيب- أن نُعطي القرآن الاهتمام اللائق به؟!
ألم يأن لنا أن نحسن التعامل معه ونُعطيه الأولوية القصوى في حياتنا؟!
ألم يأن لنا أن نجتهد في إزالة الحُجُب التي تحول بيننا وبين الانتفاع الحقيقي به؟!

كيف نزداد إيمانًا من خلال القرآن؟

قد يقول قائل: إنني أقرأ القرآن كثيرًا ولكني لا أشعر بالتغيير أو حلاوة الإيمان التي تتحدث عنها!

نعم، أخي... شعورك حقيقي، فكلُّنا مثلك -إلا من رحم الله- لأننا محرومون معاقبون من الله عَزَّجَلَّ بسبب ما فعلناه مع هذا الكتاب العزيز من تعاملات وممارسات خاطئة، والأمر لم يبدأ من جيلنا، بل من قديم، منذ أن تَوَجَّه الاهتمام إلى غير القرآن، واقتصر التعامل معه على حفظ حروفه، والإكثار من تلاوته، بفهم وبدون فهم لتحصيل الثواب والأجر.

حين تم التعامل مع القرآن بغير ما ينبغي أن يتم التعامل معه من تقدير ومهابة؛ كان العقاب المتوالي والمتصاعد من الله عَزَّجَلَّ، وأخطر تلك العقوبات: تخفيف القرآن، وحجب قلوبنا عن روحه، فصرنا نقرأ كلمات بلا روح، لا تُؤثِّرُ فينا، ولا تُحدث الزلزال المصاحب لروحه، وغاية ما نتأثر به هو وَقْعُ تلك الكلمات وما فيها من وَعْدٍ أو وَعِيدٍ أو أساليب متنوعة تُثير المشاعر، وتصورنا أن هذا هو التأثير المطلوب والحال الصحيح.

نعم.. هذا هو جوهر مشكلتنا مع القرآن.. تخفيف قدره في قلوبنا، ونزع مهابته من صدورنا، فتحول من كونه كلاماً ثقیلاً إلى قول خفيف؛ ومن ثم أصبح يقرأ كأبي كلام آخر.. بل أقل.. فتجدنا ندخل إليه ونحن غير عابئين أو مهتمين بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشعرين حاجتنا إليه..

إن حالنا ينطبق إلى حد كبير مع ما أخبرنا به رسول الله ﷺ حين قال: «سَيُخْرِجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرِبُونَ الْقُرْآنَ كَشَرِبِهِمُ الْمَاءَ»^(١).

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا صَدَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلاً عَلَيْهِمْ وَرَزَقُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفِّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْمَى فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ»^(٢).

ونكرر بأن المقصد من تخفيف قدر القرآن: أي تخفيف مهابته وقيمته في

(١) فضائل القرآن للرباعي (ص: ٢٠٣ برقم: ١٠٩)، والمعجم الكبير (١٧/ ٢٩٧ برقم:

٨٢١)، بلفظ: سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن.

(٢) أخلاق حملة القرآن للأجري (ص: ٩٨ برقم: ٣٢).

القلب، فيدخل إليه المرء وهو غير عابئ بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشعر لحاجته إليه، فتكون العقوبة: أن يُفتح له القرآن أكثر، فتنسب ألفاظه سريعاً على لسانه... وهكذا.

ويؤكد ذلك قول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتْ يَقْرَؤُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً»^(١).

نعم، أخي، هذه هي الحقيقة.. لقد أصبح القرآن غريباً بيننا، شأنه شأن الإسلام الذي أرسل به محمد ﷺ، وعلينا أن نسعى لإزالة تلك الغربة، بإزالة مسبباتها في أنفسنا أولاً، ودعوة المسلمين لذلك.. ولقد تم تفصيل هذا الأمر في مواضع أخرى بفضل الله..^(٢)

علينا أن نبدأ من الآن في العمل على إعادة مهابة القرآن في قلوبنا، وإزالة الحجب التي تحول بيننا وبينه.

أخي:

إن تحويل وجهة تعاملنا مع القرآن، وتغيير القصد، ليكون الانتفاع بمعجزته الحقيقية ووظيفته المُتفرّدة في الهداية والشفاء والتغيير، لهو أمر ضروري وحتمي إن أردنا الاستمسك الحقيقي به، وتحصيل الهدف من نزوله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تحويل وجهة تعاملنا مع القرآن نحو تحصيل الهداية الشاملة والشفاء التام والتغيير الكامل أمر شاق يحتاج إلى صبر ومصابرة..

(١) الدارمي (٤/ ٢١٠٧ برقم: ٣٣٨٩).

(٢) مثل: كتاب «غربة القرآن»، وكتاب «الطريق الوحيد» (تحت الطبع).

ومن باب التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهناك بعض الوسائل التي تسهم - بإذن الله - في رحلة العودة إلى القرآن وتنمية قدره في قلوبنا، وزيادة الإيمان من خلاله.

وقبل الحديث عن تلك الوسائل لا بد من إعادة التذكير بأن زيادة الإيمان تعني تحرك القلب، وانفعال المشاعر مع القراءة.

معنى ذلك أن القراءة التي نقرأها الآن بدون فهم ولا تفكير ولا تأثر لن تزيد إيماننا ولو ختمنا القرآن آلاف المرات.

وفي الوقت نفسه، فإن القراءة بفهم وتفكير عقلي دون أن يصحب ذلك تأثر وتحرك قلبي فهذا أيضاً لا يزيد الإيمان... فلا بديل من التأثير والتفاعل مع القراءة إن أردنا زيادة الإيمان وبناء قاعدته في القلب.

معنى ذلك أن هدفنا الذي سنسعى إليه من خلال لقاءاتنا المتكررة مع القرآن هو التأثير، وبدهي أن التأثير لن يتم إلا إذا كان هناك فهم وتفكير.

إذن ينبغي أن يكون شعارنا عند كل لقاء مع القرآن: أن نفهم ما نقرأ ونجتهد في التأثير به.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَهْذُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرَ، وَلَا تَنْثَرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَاقْفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»^(١).

مع الأخذ في الاعتبار أن تأثيرنا الحالي مع آيات القرآن ما هو إلا تأثير محدود للغاية بالمقارنة بما ينبغي أن يكون عليه التأثير، وقبل أن تُبدي اعتراضك على هذا الكلام وتنفيه

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٥٣، ٥٥٤)، والأثر رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦ برقم: ٨٧٣٣)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١/ ١٣٢). الهذ: سرعة القراءة بغير تأمل، وقوله نثر الدقل أي: كما يتساقط الرطب الرديء اليابس من العذق إذا هز.

عن نفسك؛ تذكر عتاب الله عَزَّوَجَلَّ للصحابة حين نقص خشوع وتأثر بعضهم بالقرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

فماذا نقول بعد ذلك؟!

ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؟! [الزمر: ٢٣].

الوسائل المعينة

لكي تتحقق من خلال القرآن زيادة الإيمان؛ ومن ثم القرب من الله، والاستقامة على أمره، لا بد من التأثير به، والانفعال معه، وهناك بعض الوسائل التي من شأنها أن تأخذ بأيدينا -بمشيئة الله- وتصل بنا إلى مرحلة بدايات التأثير والانفعال واستحواذ القرآن على مشاعرنا.

أولى هذه الوسائل: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح

لكي تتم لنا الاستفادة الحقيقية من القرآن ويكون دليلاً يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسبباً يقربنا إليه ويصلنا به، ودواءً نستشفى به من أمراضنا، ومصدرًا متفردًا لزيادة الإيمان في قلوبنا، وجلاءً للهموم والغموم والأحزان ومنبعًا صافيًا لتحصيل العلم النافع.. لكي يتم لنا كل هذا وغيره.. لا بد من الدخول إليه من بابه الصحيح..

إن الباب الصحيح -الذي لا باب غيره- للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يستلزم الاعتقاد الجازم أنه المصدر المتفرد الذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشاملة الكاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، وهو ما تعبر عنه عبارة «الإيمان قبل القرآن».. أي: الإيمان بأن

القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..
.. والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه..

.. والإيمان بأن القرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنسان، ومن أي وضع سلبي هو فيه إلى الحال الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين..

.. علينا أن نستحضر هذا المعنى حين ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هو: تحصيل الهداية التامة والشفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطاً بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول من اللقاء معه تحصيل هدايته وشفائه وتقويمه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. والدليل العملي على صحة هذا الإيمان وتلبسنا به هو مراقبة حالة الترقب واللهفة لتلاوة القرآن، والتعامل معه بنفسية الأمي الشغوف المستعد للتنازل عن تصورات ومفاهيمه وما فيها من خطأ أو خلط واستسلامه لتصورات ومفاهيم القرآن، وكذلك مراقبة مدى استعداده للعمل بما علم من القرآن.

ثانيًا: الانشغال بالقرآن وطول المكث معه والالتزام قدر الإمكان بورد زمني

المقصود من الانشغال بالقرآن أن نُعطيهِ الأوقات الطويلة في يومنا، مع المداومة على ذلك مهما كانت الظروف، ولنعلم جميعاً أنه على قدر ما سنُعطي للقرآن سيعطينا.

علينا أن نلزم أنفسنا بورد يومي نقرؤه كل يوم.. ويفضل ألا يكون محدداً بكم معين، بل نحدده بزمان كساعة أو ساعتين.

فلو حددنا وردنا بجزء أو جزئين -مثلاً- فإن هذا قد يدفعنا لسرعة القراءة دون مراعاة لتحصيل ما ألزمتنا به أنفسنا؛ مما يبعدنا عن الهدف المنشود.

فإن قلت: وهل يكون الورد الزمني متصلاً أم منفصلاً؟

مما لا شك فيه أن مكث الواحد منا مع القرآن، ولو لمدة ساعة -على الأقل- متصلة وبصورة يومية، سيكون له بمشيئة الله الأثر الطيب، أما إذا قرأنا الورد في فترات متقطعة؛ على عدة مرات في اليوم، بحيث لا تتجاوز مدة المرة الواحدة ربع أو ثلث الساعة، فإن هذا من شأنه أن يؤخر عملية التأثير والتفاعل مع القراءة -والله أعلم- فالمشاعر تحتاج إلى وقت طويل نسبياً -وبخاصة في البداية- حتى تلتين، وترق، وتتأجج وتتفاعل مع القراءة، فإذا بدأنا قراءتنا ثم أنهيناها بعد وقت قصير ففي الغالب ستكون هذه الفترة التحضيرية غير كافية لحدوث التأثير.

إذن علينا أن نجلس مع القرآن فترة متصلة. وأن نسمح للآيات بأن تنساب داخلنا؛ ليتصاعد تأثيرها على المشاعر شيئاً فشيئاً؛ ليحدث بعد ذلك الاتصال بين القرآن والقلب؛ ومن ثمّ الوصال مع الله عزَّوجلَّ.

ثالثاً: التهيئة الذهنية

مما لا شك فيه أن تهيئة الذهن لاستقبال القرآن وفهمه لها دور كبير في التأثير به، وهذا يحتاج إلى أن يكون لقاؤنا مع القرآن في مكان هادئ بعيد عن الضوضاء، وأن يكون في وقت لا نشعر فيه بالتعب والنعاس، وأن يكون كذلك بعيداً عن الناس..

فإن قلت: وما السبب في البعد عن الناس والاختلاء بالقرآن؟!

كان الجواب -بعون الله- بأن هذا أدعى لحدوث التأثير، ومن ناحية أخرى فإنه عندما يمن الله علينا بالتأثر والتجاوب مع الآيات، فإن هذا من شأنه أن يدفعنا للبكاء والدعاء والتضرع إلى الله، وهذا بلا شك لا يصلح أن يظهر أمام الناس، فإن قاومنا هذه الأمور ولم نظهرها أمام الناس كانت النتيجة ضعف تأثير القرآن علينا، وإن أظهرناها فإننا بذلك نفتح باب فتنة عظيمة أمام أنفسنا.. فالحل هو الجلوس في مكان هادئ بعيد عن الأعين. ومع المكان الهادئ لا تنسَ كذلك السواك والوضوء.

رابعاً: التهيئة القلبية

كما قيل في الصفحات السابقة بأن هدفنا الأسمى من لقائنا بالقرآن تحصيل الهداية والشفاء والتغيير الشامل، وهذا يستلزم التأثير الذي يزداد به الإيمان كبداية لتحقيق هذا الهدف... هذا التأثير والتجاوب بين القلب والقرآن من الصعب بعض الشيء حدوثه في بداية رحلة العودة الحقيقية إلى القرآن، فالإيمان مخدّر ونائم، ويحتاج إلى إيقاظ أولاً؛ ليزداد مساحته بعد ذلك من خلال القرآن... من هنا اشتدت الحاجة لاستخدام وسائل إيقاظ الإيمان -وبخاصة في البداية؛ ولقد تم بفضل الله الحديث المجمل عن أهمية استخدام سياط الخوف من الله لإيقاظ الإيمان المخدّر في القلب^(١)، ولا يعني هذا أن نتوقف عن قراءة القرآن حتى يتم إيقاظ القلب، بل يمكننا أن نسير في الاتجاهين معاً، وذلك من خلال تهيئة القلب قبل

(١) بفضل الله تعالى هناك فصل كامل في كتاب «الإيمان أولاً» يتناول هذا المعنى «شدة الخوف من الله»، والكتاب متوفر على موقع الإيمان أولاً على الشبكة الإلكترونية:

القراءة، مع العلم بأنه بعد فترة ليست بالقصيرة، وبعد حدوث حالة اليقظة والانتباه القلبي لن نكون بحاجة كبيرة إلى استخدام تلك الوسيلة.. والله أعلم.

نكرر بأن معنى التهيئة القلبية هي تهيئة القلب لاستقبال القرآن، وذلك من خلال تهيئة مشاعره وتوجيهها لسماع الخطاب القرآني؛ ومن ثم سهولة تأثرها به، وانفعالها معه كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾ [ق: ٤٥].

نعم، بعد طول المكث مع القرآن ويقظة القلب، ستتقل المشاعر من حالة القسوة والجمود إلى الرقة واللين، ولن ينقصها حينئذ سوى اللقاء بالقرآن ليحدث الوصال والانفعال والتأجج، وهذا هو المقصد من القول بأن التهيئة القلبية وسيلة نحتاج إليها - بإذن الله - في بداية عودتنا إلى القرآن، ومما يؤكد هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبَاكُوا، وَغَنُّوا بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»^(١).

كيف تتم التهيئة القلبية؟

هناك طريقتان للتهيئة القلبية:

أولاهما: الاستفادة من أوقات استثارة المشاعر التي تحدث خلال اليوم بصورة طبيعية عند قراءة أو رؤية أو الاستماع لخبر أو حادث تنفعل معه المشاعر، عند ذلك فإننا حين نقرأ القرآن ونحن بهذه الحالة من التأثر سيكون له أثر طيب وسريع في تجاوب المشاعر مع القراءة، ولنا في قصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبلغ المثل لهذه الطريقة؛ فلقد رقت مشاعره عند رؤية الدم يسيل على وجهه

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٤، برقم: ١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٩١ برقم: ٢١٠٥٨).

أخته... في هذا الوقت استمع للقرآن فانفتح قلبه وانشرح للإسلام.

والثانية: أن نعمل على استثارة المشاعر ولو لبضع دقائق قبل القراءة، وذلك من خلال تذكر الموت أو الاستماع إلى موعظة، أو القراءة في كتاب من كتب الرقائق، ولا ينبغي لأحد منا أن يهمل هذه الوسيلة، ويتجه مباشرة إلى القراءة دون تهيئة قلبية - وبخاصة في البداية - فهذا من شأنه أن يؤخر التجاوب بين القلب وبين القرآن.

ومما يؤكد أهمية تلك الوسيلة، النصيحة التي نصحنها بها رسول الله ﷺ كي نخشع في صلاتنا بقوله: «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلَّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا»^(١). فتذكر الموت، واستشعار أننا نصلي صلاة مودع للدنيا له أثر كبير في حضور قلوبنا وخشوعها وتجاوبها مع الصلاة... وهذا ما نريد فعله مع القرآن.. أن نتذكر الموت قبل تلاوة القرآن ليكون ذلك مدعاة لسرعة التأثر والتجاوب مع الآيات. ومما يهيئ المشاعر أكثر للاستثارة والتأجج: التباكي مع الآيات.

خامساً: الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة

من الوسائل المعينة على سرعة التأثر: القراءة الصحيحة وسلامة النطق، وهذا يستلزم تصحيح النطق بالآيات، وتعلم أحكام التلاوة دون تكلف أو إفراط، وكذلك علينا القراءة بصوت مسموع، والترتيل، مع تحسين الصوت قدر الإمكان، فهذه

(١) رواه البيهقي في الزهد (برقم: ٥٢٧)، وحسنه ابن حجر كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٢٢٦).

الأمور لها دور عظيم في سرعة استشارة المشاعر، قال ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ؛ فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا»^(١).

قال الزبيدي: إن الصوت الحسن يزيد القراءة حسناً، وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعث للقلوب على استماعه وتدبره، والإصغاء إليه^(٢).

ومع الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، لا بد كذلك من القراءة الهادئة المترسلة.

ولقد كان هذا هو هدي النبي ﷺ، كما تقول أم المؤمنين حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصفها لقراءته ﷺ: «... وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرْتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا»^(٣).

فإن قلت: ولكنني تعودت على أن أقرأ بعيني دون صوت، وأفهم بذلك ما أقرؤه.

نعم، القراءة بالعين فقط قد تؤدي إلى الفهم، لكنها من الصعب أن تؤدي إلى التأثير المطلوب؛ لأن الصوت المسموع الذي يراعي أحكام الترتيل من غنة ومد وإخفاء وإظهار له دور كبير في مخاطبة المشاعر وتحريكها؛ ومن ثمَّ سرعة الوصول لمرحلة التأثير المنشود - بإذن الله.

(١) رواه أحمد (٣٠/ ٤٥١ برقم: ١٨٤٩٤)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٦ برقم: ١٣٤٢)، وأبو داود (٢/ ٥٩٤ برقم: ١٤٦٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩ برقم: ١٠١٥)، والحاكم في المستدرک (١/ ٧٦٨ برقم: ٢١٢٥)، واللفظ له، وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٦٨ برقم: ٢٦٥٠).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٤/ ٤٩٧).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٣٣).

سادسًا: فهم ما نقرأ

لكي نصل -بعون الله وفضله- إلى مرحلة التأثير بمعاني ما نقرؤه لا بد أن نُعمل عقولنا فيه، وأن نجتهد في فهم الخطاب القرآني ولو بصورة إجمالية.. فمن البدهي أننا لن نتأثر بشيء لا نفهمه، كما قال تعالى واصفًا حال الأعاجم حين يسمعون القرآن: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٣٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. والذي يتأثر منهم بسماع القرآن دون معرفته بمعانيه فإنما يتأثر بنغمته وجرسه وإيقاعه.

إذن علينا أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب باللغة العربية التي نفهمها ونقرأ بها الكتب الأخرى.

علينا -إذن- أن نُعمل عقولنا في فهم ما نقرأ من القرآن، كما نُعملها في فهم ما نقرأ من أي كتاب آخر.

علينا أن نفهم ما نقرؤه بيسر ودون تكلف ولا تعسف، فأغلب الآيات واضحة المعنى، ومن السهل فهمها.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

نعم، قد يكون الفهم محدودًا، وسطحياً، وهذا لا بأس به -ولو في البداية-؛ لأن الفهم وحده ليس هو المقصود، بل المقصود هو التأثير، فقد يفهم شخص (ما) آية بفهم محدود لكنه يتأثر بها تأثراً عظيماً، وقد يفهم آخر نفس الآية بفهم عميق، ولكن دون تأثير... فالأول بلا شك هو الذي سيتنفع بالقرآن ويزداد إيماناً، أما الثاني فسيزداد به -فقط- معرفة تظل حبيسة عقله دون أن يكون لها أثر في سلوكه لأنه لم يتجاوب معها بقلبه.

إن التأثير القلبي متاح أمام الجميع، ولا يستلزم ثقافة معينة أو فهماً عميقاً، بل يستلزم انفعال القلب مع ما تدل عليه الآيات، حتى وإن كان مقدار فهم صاحبها لها محدوداً.

تأمل معي ما حدث للأعرابي الذي كان في مجلس رسول الله ﷺ، فاستمع منه إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِثْقَالَ ذَرَّةٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاسْوَأَاتَاهُ. مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَقُولُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ دَخَلَ قَلْبُ الْأَعْرَابِيِّ الْإِيمَانُ»^(١).

لقد دخل الإيمان قلب الأعرابي عندما تأثر بهذه الآيات بالرغم من فهمه الإجمالي لها.

سابقاً: الإنصات التام أثناء التلاوة

أيضاً هناك وسيلة في غاية الأهمية لا بد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنا للقرآن، وهي الإنصات التام - قدر المستطاع - لما نقرأ أو نسمع من الآيات.. فما هو المقصود بالإنصات؟

الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٢٧٨).

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يسمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا يستمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يستمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يسمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشد حاجته إليه: ... تجده يُصغي سمعه وينصت، فينتقل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

وهذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله جل شأنه على الانصات بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، سواء أتلوناه بألسنتنا أم استمعنا إليه من غيرنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين استمعوا القرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحري بنا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ثامناً: أن نكتفي بالمعنى الإجمالي للآيات

لكي يحدث التأثير والتجاوب القلبي مع الآيات لا بد من الاستمرار في القراءة وعدم قطعها، وأن نسمح للآيات بأن تنساب داخلنا ويستمر تأثيرها شيئاً فشيئاً حتى نصل لمرحلة التأثير.

فإن قلت: وماذا أفعل لو وجدت أمامي كلمة لا أعرف معناها؟!

لو قطعنا القراءة من أجل النظر في كتب التفسير لمعرفة معناها لانقطع حبل التأثير، ولما وصلنا للهدف المنشود.

لا بد -إذا- من الاستمرار في القراءة، فإن أشكل علينا فهم كلمة أو كلمتين في آية من الآيات فلا بأس بأن نكتفي بالمعنى الإجمالي لها، فإن لم نستطع فهم معناها الإجمالي فلنتجاوزها إلى غيرها^(١)، فمما لا شك فيه أن القدر الذي سنفهمه من الآيات أكبر بكثير من القدر الذي لن نفهمه، ولقد دلنا رسولنا ﷺ على قريب من هذه الطريقة بقوله: «... إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»^(٢).

ويؤكد على هذا المعنى الحسن البصري فيقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه،

(١) يمكن القراءة في مصحف موجود على هامشه معاني الكلمات، ومن ثم يمكننا معرفة معنى الكلمة الصعبة بطرف العين دون قطع القراءة والاسترسال فيها، وذلك من أجل الحفاظ على تأجيج مشاعرنا واستمرار تصاعدها مع التلاوة بإذن الله.

(٢) رواه أحمد في المسند (١١/ ٣٠٥ برقم: ٦٧٠٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه^(١).

ولا بأس بالعودة لكتب التفسير بعد ذلك لمعرفة أي معنى من المعاني التي صعب علينا فهمها، أو أحكام شرعية دلت عليها الآيات.

تاسعاً: التجاوب مع القرآن

القرآن خطاب مباشر من الله عَزَّوَجَلَّ لجميع البشر: لي، ولك، ولغيرنا.. هذا الخطاب يشمل من ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعداً ووعداً، وأوامر ونواهي. فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسئلته، وتنفيذ ما يدل عليه من تسبيح أو حمد أو استغفار أو سجود، وعلينا كذلك التأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة كلما مر ذلك علينا، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ، قَالَ: أَخَّرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ فَصَلَّيْتُ، وَدَخَلَ فَكَانَ فِي ظَهْرِي، فَقَرَأْتُ: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾﴾ [الذاريات: ١] حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِي الْمَنَامِ رَزَقُوهُمْ وَمَا يُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] فَرَفَعَ صَوْتَهُ حَتَّى مَلَأَ الْمَسْجِدَ: «أَشْهَدُ»^(٢).

وسمع عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً قرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

قال: إِي وَعَزَّتْكَ، فَجَعَلْتَهُ سَمِيعاً بَصِيراً، وَحَيًّا وَمَيِّتًا^(٣).

(١) فضائل القرآن للرازي (ص: ١٢٦).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٩).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٥٠).

وعن أبي عمار الكوفي - عبد خير - أنه سمع عليًا قرأ في الصلاة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، فقال: سبحان ربي الأعلى^(١).

فعلينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة والتي سنجد لها أثرًا عظيمًا - بمشيئة الله - في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

عاشراً: ترديد الآية التي تؤثر في القلب

كل الوسائل السابقة من شأنها أن تُسرّع بنا الخطى نحو التأثير والانفعال بآيات القرآن، ومع هذا كله فإن التأثير أمر لا نقدر على تحصيله في الوقت الذي نشأؤه، فهو منحة من الله عَزَّجَلَّ، وما علينا إلا أن نهَيء قلوبنا له، ونتخذ الأسباب التي تؤهلنا لتلك المنحة... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن آيات القرآن كلها نور... هذا النور يحاول دائماً اختراق القلب كلما قرأ المرء أو استمع للقرآن، ولكن مع سُحب الظلمات والغلات التي تحيط بالقلب، ومع قسوة المشاعر، فإن هذا النور قد يجد صعوبة في الوصول إلى القلب وهز مشاعره، وفي الوقت نفسه فإنه بالمداومة على الوسائل السابقة، ومع التهيئة القلبية التي اجتهدنا في تحصيلها قبل القراءة ستأتي - بفضل الله - لحظات سعيدة يتم فيها اختراق بصيص أو أثر يسير من نور آية أو آيات للسُّحب المحيطة بالقلب، فتنفذ إليه، وتُحرك مشاعره، وتهزها ليحدث التفاعل، والتجاوب والوصال، ويزداد الإيمان.

هذه اللحظات التي يتحرك فيها القلب تُعد بمثابة بدايات الحياة الحقيقية للإنسان، وعلى قدرها يُحسب عمره الحقيقي.

(١) المصدر السابق (ص: ١٥٣).

فإن كان الأمر كذلك، فماذا نفعل وقت حدوث ذلك التفاعل والتجاوب؟ علينا أن نغتني الفرصة التي جاءتنا، فنسمح لهذا البصيص أو الأثر اليسير للنور بدخول القلب لعله يسهم - بإذن الله - في تخليص مشاعرنا من أسر الهوى، وزيادة الإيمان في قلوبنا، وذلك من خلال ترديد تلك الآية أو الآيات التي حدث معها التجاوب.

علينا ألا نبخل على أنفسنا بزيادة أمد لحظات السعادة والاتصال بالله. علينا أن نردها ما دام وُجد التجاوب، ولا نتوقف إلا بعد أن يخفت، ثم ننتقل لما بعدها من آيات، وننتظر لحظات سعيدة أخرى مع آية جديدة يتجاوب القلب معها.

أخي الحبيب:

تخيل لو أن الماء قد انقطع عن بيتك يوماً أو يومين، ثم جاء في لحظة من اللحظات وأنت ظمآن، هل ستشرب ما يكفيك فقط ثم تغلق الصنبور، أم ستستغل الفرصة وتملأ كل ما يمكنك ملؤه من أوعية تحسباً لانقطاعه مرة أخرى؟

إن لحظات زيادة الإيمان في قلوبنا أهم من لحظات مجيء الماء بعد انقطاعه بمراحل، فلنعمل على الاستفادة منها بأقصى ما نستطيع، وذلك من خلال ترديد الآية التي تؤثر في القلب مع الدعاء والبكاء كما كان يفعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.. كان أحدهم يردد آية واحدة طيلة الليل حتى يصبح.

حادي عشر: استصحاب معنى إيماني يتم تتبعه فترة طويلة

الوسائل السابقة من شأنها -بإذن الله- أن تزيد الإيمان في القلب شيئاً فشيئاً، ومع ذلك تبقى وسيلة أخرى يمكنها أن تقوم بدور جديد في تثبيت أركان الإيمان، وتشيد بنيانه شيئاً فشيئاً.

نعم، القراءة المستمرة -بما تم ذكره بفضل الله- تقوم بهذا الأمر، ولكن لو أضفنا إلى ذلك التركيز بصفة خاصة على حقيقة من حقائق الإيمان، وتبعناها في وردنا القرآني -ولو خلال ختمة واحدة- فإن ذلك من شأنه أن يُسرّع الخطى نحو بناء اليقين بتلك الحقيقة في عقل الإنسان، وفي الوقت نفسه يجعل القلب أكثر تأهلاً واستعداداً للتأثر بها أكثر من غيرها، فإن صاحب ذلك عمل يقوم به الواحد منا طيلة فترة تركيزه على هذا المعنى الإيماني؛ فلا تسلك عن عمق الإيمان ومدى رسوخه في قلبه، والذي سينعكس سريعاً على سلوكه وعلاقاته بمن حوله.

فإن قلت: نريد توضيحاً لهذه الوسيلة، ونماذج للمعاني التي سنبحث عنها، والواجبات العملية التي سنقوم بها.. كانت الإجابة في الصفحات القادمة بمشيئة الله.



الفصل الرابع

كيفية بناء الإيمان

من خلال القرآن

كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن

تم الحديث بفضل الله في الفصول السابقة عن حقيقة الإيمان، ومعنى زيادته ونقصانه ودور العمل الصالح في ذلك، وتم بيان دور القرآن العظيم في زيادة الإيمان، مع استعراض بعض الوسائل المعينة - بإذن الله - على تذوق الإيمان من خلال قراءتنا للقرآن، وفي هذا الفصل سيكون الحديث بمشيئة الله عن كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن، وذلك بالبحث عن «مدلول معنى من المعاني الإيمانية» خلال رحلتنا المباركة مع المصحف والتي تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس.

والهدف من ذلك التركيز أكثر وأكثر مع القراءة، واستثارة الهمم، وسرعة وعمق الاستفادة من القرآن، وتذوق حلاوته، وانعكاس ذلك على السلوك.

تخيل لو أن شخصين دخلا مكتبة عامة للقراءة؛ أحدهما يبحث عن موضوع معين، والآخر لا يبحث عن شيء محدد، ومكث الاثنان بعض الوقت.. أما الأول فظل يبحث عن الكتب التي تخدم موضوعه، ويقرأ سريعاً فيها، والثاني ظل يتنقل بين الكتب في الأقسام المختلفة... يقلب صفحات كتاب أعجبه اسمه، وينظر في فهرس كتاب آخر، ويتأمل الصور في كتاب ثالث... بلا شك أن الاثنین استفادا من وجودهما في المكتبة في هذه الفترة، ولكن يا ترى أيهما أكثر استفادة؟ أليس الشخص الأول؟

إن القرآن مليء بالكنوز والعلوم والمعاني الإيمانية، ومما لا شك فيه أن أي

شخص يدخل إليه ويتعامل معه على حقيقته فسيستفيد منه استفادة كبيرة، فالقرآن كتاب كريم، يُكرم كل من يجلس معه، ولكن لو قام الواحد منا بالبحث عن موضوع محدد، ومعنى من المعاني الإيمانية، وتتبع الآيات التي تتحدث عن مدلول هذا المعنى، فإن هذا من شأنه أن يرسخ هذا المعنى في عقله ليصبح يقيناً عنده، مع سرعة تجاوب قلبه معه بصورة أسرع من التجاوب مع الآيات الأخرى؛ ومن ثمَّ يستحوذ هذا المعنى على جزء من مشاعره ليزداد تبعاً لذلك قدر الإيمان الراسخ في قلبه.

بناء العقيدة

لقد كان القرآن في السابق ومع الأجيال الأولى هو الوسيلة الأساسية لبناء العقيدة الصحيحة الصافية عند المسلم، ولكن بمرور الوقت، وابتعاد الأجيال اللاحقة عن القيمة الحقيقية للقرآن، وهجر الانتفاع به، تحولت العقيدة إلى كلام نظري تمتلئ به الكتب ما بين قواعد وأصول وشروح وحواشٍ ومختصرات؛ مما أدى إلى تضخيم الجانب المعرفي دون أن يصاحب ذلك إيمان حي في القلب، فكانت النتيجة ابتعاد الواقع عن الواجب، والعمل عن العلم.

من هنا اشتدت الحاجة إلى العودة مرة أخرى إلى القرآن لتعلم الإيمان وبناء العقيدة التي تجمع بين اليقين العقلي والإيمان القلبي، ويظهر أثرها في السلوك العملي بالاستقامة على أمر الله، ومن الوسائل المعينة على ذلك تتبع معنى من المعاني الإيمانية خلال رحلتنا مع تلاوة القرآن كوسيلة سهلة ومتدرجة لبناء العقيدة الصحيحة.

فعلى سبيل المثال: صفة الوجدانية لله عَزَّجَلَّ أفاض القرآن في الحديث عنها وبأساليب مختلفة ومتنوعة تخاطب العقل فتقنعه، وتستثير العاطفة فتزيد الإيمان بها في القلب.. هذه الصفة لو تتبعها الواحد منا في رحلته مع تلاوة القرآن وعاش مع ما تدل عليه الآيات بفكره وعاطفته لتمكن مدلولها في يقينه، ولرسخت في إيمانه؛ مما يؤدي إلى ظهور آثارها عليه في سلوكه وبصورة تلقائية.. كل ذلك يتم بسهولة ويسر دون الحاجة إلى قراءة البحوث المطولة التي تمتلئ بها المكتبة الإسلامية والتي تتناول مسائل العقيدة والتوحيد.

المعجم المفهرس

فإن قلت: ولكن يمكننا إحصاء الآيات التي تتناول المعنى الإيماني المراد معرفته من خلال البحث عنها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن فنختصر بذلك الوقت.

نعم، هذا من الممكن أن يتم، ولكنه لن يأتي بالثمار المطلوبة من عملية التغيير القرآني، فتتبع الآيات في المصحف، والعيش في أجوائها، وتكرار المعنى بصورة مختلفة، والانفعالات التي قد تصاحبها... كل هذا من شأنه أن يعيد تشكيل العقل، ويرسخ المعنى في اللاشعور، ويبني فيه اليقين الصحيح، مع زيادة الإيمان في القلب؛ مما سينعكس أثره على السلوك بصورة إيجابية، وهذا بالتأكيد لن يحدث إذا ما قرأ المرء الآيات التي تخص الموضوع من كتاب آخر، والتي قد يعيش في أجوائها عند قراءتها، ثم يعود بعد ذلك لسابق عهده دون أن يرسخ فيه هذا المعنى.

ربط القرآن بالحياة

ولكي تحسّن استفادتنا أكثر وأكثر بهذه الطريقة علينا أن نربط هذا المعنى

الإيماني الذي نعيش معه في رحلتنا المباركة مع القرآن بأعمال مصاحبة ذات ارتباط وثيق به، فكما قيل سابقاً: إن العمل بالنسبة للإيمان كالماء للزرع، والزيت للسراج... فعلى سبيل المثال: عندما نبحث في القرآن ونتعرف على الله الوهاب المنعم يمكننا أن نستصحب في هذه الفترة وسائل عملية عديدة، ككثرة الحمد، وسجود الشكر، وإحصاء النعم.

نعم، هذه الأمور ينبغي أن يفعلها المسلم في كل أوقات حياته، ولكن التركيز عليها بصفة خاصة في هذا الوقت له أثره الطيب والفعال في رسوخ الإيمان بهذا المعنى في قلبه.

المدة المقترحة

إذا ما كانت رحلات المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنى جديد من المعاني التي تؤسس القاعدة الإيمانية في القلب، وتبني اليقين في العقل، فإذا ما انتهت الختمة وشعر أنه لا يزال بحاجة إلى الاستمرار في التعامل مع هذا المعنى فلا بأس من رحلة جديدة يستصحبها فيها.

مع التذكير بأننا لا نريد معرفة عقلية فقط، بل لا بد من تجاوب القلب مع هذه المعرفة، وإلا لما ظهرت الثمرة المرجوة.

ونكرر ما قيل سابقاً بأن اتخاذ هذه الوسيلة واستصحاب معنى إيماني نعيش معه خلال رحلتنا مع المصحف، ليس معناه ترك التفاعل مع بقية الآيات التي نتحدث عن معانٍ إيمانية أخرى، بل المطلوب هو فهم ما تدل عليه الآيات كلها مع الاجتهاد في التأثير بها، وترديد الآية التي يتم التجاوب معها وإن كانت تتحدث عن

معنى آخر غير الذي نستصحبه، وبالإضافة إلى ذلك علينا أن نركز أكثر وأكثر مع المعنى الذي اخترناه لنعيش معه خلال الختمة.. هذا التركيز إنما يكون من خلال تتبعه، والبحث عن الآيات التي تتناوله، والتأمل فيها، ومعرفة الجديد الذي تحمله مع الاجتهاد في استثارة المشاعر مع التفكير فيها حتى نزداد به إيماناً.

والذي يعين المرء على سرعة تأثره بالآيات التي تتناول المعنى الإيماني الذي يستصحبه: قيامه بأداء أعمال إيمانية لها صلة بهذا المعنى كما سيأتي بيانه.

وقبل أن نتقل للحديث عن نماذج للمعاني الإيمانية المقترح استصحابها عند تلاوتنا للقرآن، أذكر نفسي وإخواني بأن هذه الوسيلة وغيرها من الوسائل السابقة ليست إلزامية لأحد، بل هي على سبيل الاستئناس والتعاون على العودة المتدرجة والهادئة إلى القرآن، وحسن الانتفاع به على الوجه الذي أنزله الله من أجله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

نماذج إيمانية

وإليك -أخي القارئ- نماذج للمعاني الإيمانية التي نريد أن نتعلم مثلها من خلال القرآن الكريم؛ لتكون لنا عوناً على بناء اليقين الصحيح في عقولنا، وتشديد صرح الإيمان في قلوبنا، ولك أن تضيف عليها كل ما تريد ترسيخه لديك، فالقرآن مليء بالحقائق والمعاني الإيمانية والتي يكفيننا تتبعها حتى الموت... بل لن تكفي حياتنا لإحصائها: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

الفصل الخامس

نماذج مقترحة

لبناء الإيمان من خلال القرآن

النموذج الأول:

الإيمان بالغيب

والمقصد من الإيمان بالغيب أن نؤمن بوجود كون غيبي لا تراه أعيننا، وأن نؤمن بوجود الله سبحانه، ونؤمن كذلك بوجود المخلوقات التي لا تراها أعيننا كالملائكة والجن، ويشمل الإيمان بالغيب أيضًا الإيمان بوجود أحداث سوف يمر بها الإنسان بعد الموت من حياة برزخية، وبعث ونشور وحساب ثم الجنة أو النار.

أهمية الإيمان بالغيب

الإيمان بالغيب هو الباب الأعظم الذي من خلاله تتصل الأرض بالسماء ويؤمن الناس بالله، وعلى قدر اليقين به يستقيم أمر العباد، فمن يعلم أن الله موجود ويراه ويراقبه، وأن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله وتسجلها في صحيفته، وأن هناك بعثًا بعد الموت، وحسابًا على تلك الأعمال؛ فإن هذا من شأنه أن يدفعه للاستقامة وفعل ما ينفعه وترك ما يضره في الدنيا والآخرة.

تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

أرأيت لو أن هؤلاء المطففين يوقنون بالبعث والحساب أمام الله عزَّجَل هل كانوا سيفعلون ما فعلوه من تطفيف الميزان؟

إذن الإيمان بالغيب هو البداية التي ينبغي أن نبدأ بها رحلة الإيمان، ولم لا ونحن من خلالها سنغلق الباب -بمشيئة الله- أمام وساوس الشيطان حول وجود الله والبعث والحساب، فهو لا يكاد يترك أحدًا إلا ويوسوس له بهذه الوسوس، حتى تفتّر عزيمته ويترك العمل والاجتهاد، ويرتكب المعاصي التي تتسبب في هلكته؛ ومن ثمّ يلحق به في النار.. فإن كنت في شك من هذا فتأمل معي هذه الآيات التي تصف حال عباد الله المخلصين والذين سيدخلون الجنة ثم يدور بينهم فيها هذا الحديث: ﴿فَاطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ [الصفافات: ٥٥-٥٩].

كيف نؤمن بالغيب؟

دلائل وجود الله؛ ومن ثمّ صدق كل ما أخبر به موجوده في كل مكان، وأكثر من أن تحصي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

ومع ذلك فقد أرسل الله لعباده رسالة من عنده يعرفهم فيها بنفسه، وبالغيب الذي لا يرونه، وبما سيحدث لهم بعد الموت.. هذه الرسالة أرسلها مع رسول هو محمد بن عبد الله ﷺ.

إذن فأهم دور للرسالة هو ربط الأرض بالسماء، واليقين بصحة الغيبات، مثل اليقين بصحة ما يشاهدونه بأعينهم.. فإن آمن الناس بهذه الرسالة وأنها حق لا ريب فيه، وليست من تأليف البشر، وأنها من عند الله، فمعنى ذلك أنهم سيؤمنون بكل ما جاء فيها، وما أخبرت عنه.

إذن فنقطة البداية للإيمان بالغيب التصديق بأن القرآن من عند الله، فإن تم

ذلك كان الإيمان بما تضمنه أمرًا تلقائيًا؛ لذلك نجد أن كفار مكة كانوا يحاولون دومًا التشكيك في صدق القرآن بوسائل كثيرة حتى لا يؤمنوا بما فيه من غيب، وكانت أهم أساليبهم: التشكيك في شخص الرسول ﷺ، والادعاء بأنه ساحر أو كاهن أو مجنون، أو أنه قد اقتبس من أساطير الأولين.. كل ذلك لكي يجدوا لأنفسهم مبررًا لعدم تصديق القرآن وما أخبر عنه من غيب: ﴿قُلْ تَرَىٰصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَيِّصِينَ﴾ (٣١) **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَّاغُوتٌ** (٣٢) **أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ** (٣٣) **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** (٣٤) [الطور: ٣١-٣٤].

كيف نؤمن بأن القرآن حق؟

ولأن الإيمان بأن القرآن حق، وأنه رسالة من عند الله، هو حجر الزاوية في مسألة الإيمان بالغيب، نجد أن القرآن يثبت ذلك بأدلة كثيرة، علينا أن نعيش معها في رحلتنا المباركة مع كتاب الله، وأن نعمل على تجاوب المشاعر مع ما تقرره في العقل من حقائق؛ ليصبح الإيمان بالغيب جزءًا أصيلًا من إيماننا.

والآيات التي ينبغي أن نتوقف عندها ونتفكر فيها تدور حول هذه المحاور:

أولاً: التحدي

فلقد دعا الله عزَّوجلَّ في كتابه كل المشككين في القرآن أن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤) [الطور: ٣٤]، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) [هود: ١٣]، فإن لم يستطيعوا بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) [البقرة: ٢٣]. ويستمر التحدي حتى يومنا هذا وإلى قيام

الساعة كأقوى دليل على أن هذا الكتاب حق، ومن ثم ينبغي على الناس الإيمان بكل ما أخبر به: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن صور التحدي به كذلك: تحديهم لإظهار أخطاء فيه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا أمر عظيم كفيل بإثبات صحة القرآن، فلا يوجد كتاب من تأليف البشر يدعي صاحبه أنه بلا أخطاء.

ثانيًا: إخباره عن أنباء مستقبلية وحدثها بعد ذلك

فمن دلائل أن القرآن حق وأنه لا ريب فيه: إخباره عن وقوع أشياء في المستقبل كأعظم دليل على أنه ليس من قول البشر، فالبشر لا يعلمون الغيب.

فعلى سبيل المثال أخبر القرآن بأن الفرس قد انتصروا على الروم، وقد حدث هذا بالفعل، وأخبر كذلك بأن الروم سينتصرون على الفرس خلال سنوات معدودة.. وقد حدث هذا أيضًا: ﴿الْم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ مَكِيلُونَ ۝٣ فِي يَضِيعِ سِنِينَ ۝٤﴾ [الروم: ١-٤].

والقرآن أخبر رسول الله محمدًا ﷺ أنه سيعود بإذن الله إلى مكة بعد أن أخرجته قومه منها، ولقد عاد بالفعل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۝١﴾ [القصص: ٨٥].

والقرآن أخبر بأن اليهود بعد تشنتهم في الأرض سيجتمعون مرة أخرى في مكان واحد.. وقد حدث هذا في عصرنا باحتلالهم فلسطين وتجمعهم فيها:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ثالثًا: إخباره عن كنهه أشياء لم يكن لأحد من البشر أن يعلمها وقت نزول القرآن، وأثبتها العلم الحديث في هذا العصر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَتُريهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالله عزَّ وجلَّ أخبر في هذه الآية أنه سبحانه سيُري الخلق أشياء أخبر عنها في القرآن فيتأكدون من خلال رؤيتها أن القرآن حق، وأنه ليس من صنع البشر فيؤمنون بما فيه، ولقد أُتيحت لنا -نحن مسلمي هذا العصر- رؤية هذه الآيات أكثر من غيرنا من القرون السابقة؛ بسبب تقدم العلم الحديث، واكتشافاته غير المسبوقة، ومن ذلك: أطوار نمو الجنين في الرحم، وكيفية نزول المطر، واتساع الكون، وضيق الصدر عند الصعود للسماء، وأن الجلد هو مكان الإحساس والشعور بالألم؛ لذلك فإن الكفار في النار يتم استبدال جلدهم بجلد جديد كلما تهتك ليشعروا بالعذاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا فَضَحَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

رابعًا: التأكيد على صدق رسول الله محمد ﷺ وأنه مبعوث من رب العالمين فهو ﷺ أُمِّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف يمكنه إذن أن يؤلف القرآن أو ينقله عن غيره، وقد كان مع قومه قبل ذلك، واحدًا منهم، ولم يدَّع طوال سنين عمره -قبل بعثته- أنه رسول من الله: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

ولو كان القرآن من عنده ﷺ لما أوصل لنا في بعض مواضع القرآن خطاب الله الشديد له، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولو كان من عنده ﷺ ما تأخر عن إجابة الكافرين عن فتية أهل الكهف ولا الخضر ولا ذي القرنين، وما انتظر شهراً كاملاً حتى يبرئ زوجته التي اتهمت في عرضها من قبل المنافقين في حادث الإفك.

ومما يثبت أنه رسول الله؛ إخباره ﷺ عن أشياء ستحدث في المستقبل، وأن الله أوحى له بذلك: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ﴾ [النجم: ٣، ٤]. كوعده لسراقة بسواري كسرى، ووعده بالفتوحات، ووعده بفتح القسطنطينية... وتحققت جميعاً.

أعمال يفضل القيام بها وبمثلها

قد يقول قائل: إنني أعلم هذا كله، ولا أحتاج لتأكيد هذه الحقائق.

نعم، قد تكون كذلك -أخي القارئ- ولكن يظل بناء الإيمان في القلب يحتاج إلى تجاوب بين الفكر والعاطفة، لترسخ تلك الحقائق في اليقين، وتشكل جزءاً من المشاعر لينعكس ذلك على الأفكار والاهتمامات والسلوك.. من هنا كان من المناسب أن نهتم بهذا الموضوع، وأن نخصص له رحلة -أو أكثر- من رحلاتنا مع القرآن، بمعنى أن نقوم بتتبع الآيات التي نتحدث عن المحاور الأربعة السابقة والتي تثبت أن القرآن حق، ونفكر فيها، ونجتهد في تجاوب المشاعر معها.

ومن الأعمال المقترحة: الانتفاع بالمواد المقروءة والمسموعة والمرئية والتي تتحدث عن آيات الله، والإعجاز العلمي في القرآن، وهي بفضل الله كثيرة ومتوفرة، ولها دور كبير في ترسيخ هذه الحقائق.. بإذن الله.

ومن الأعمال أيضاً: استخدام هذه الحقائق في دعوة المسلمين التائبين، وكذلك غير المسلمين، وذلك بالدليل العقلي الذي لا لبس فيه.



النموذج الثاني:

الإيمان بالله الواحد الأحد

هذا الجانب الإيماني هو أهم الجوانب على الإطلاق، ولا بد أن يهتم كل منا بترسيخه في يقينه وتعميق إيمانه به، ولم لا وهو عمود الإسلام وفُسطاطه، وهو البوابة التي تلج منها أعمال العبد إلى الله، فمهما عمل العاملون، وأحسن المحسنون.. لا بد لهم أولاً من توحيد الله فيفردونه بالتوجه والعبادة والاستعانة وإلا خاب سعيهم، وضاع مجهودهم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

ولقد اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بتقرير وحدانية الله، واستخدم في ذلك أساليب شتى، وبدأ فيها من أول نقطة:

هل للكون إله؟ مَنْ هو؟ وما الذي يُثبت أنه الإله الحق؟ وهل معه شريك؟ هل له ولد؟ وماذا عن ادعاءات البعض بوجود شركاء مع الله؟

كل هذه النقاط وغيرها أفاض القرآن في ذكرها وكررها في سور كثيرة، وخاطب من خلالها العقل والقلب، ومزج الفكر بالعاطفة ليرسخ مدلولها في يقين العبد، وتتشابك مع إيمانه، وتشكل جزءاً مهماً من مشاعره ليكون النتاج:

إخلاصاً تلقائياً لله عَزَّوَجَلَّ في كل الأمور والأحوال مع دوام الاستعانة به فيردد دائماً: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

محاوِر الإيمان بالوحدانية

وإليك -أخي القارئ- بعضاً من الآيات التي تتناول موضوع الوحدانية،
وتتحدث عن المحاور السابقة بأدلة تخاطب العقل والعاطفة:

فمسألة وجود إله وخالق للكون يطرحها القرآن في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

من هو الإله الحق؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى
الَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ما الذي يُثبِت أن الله هو الإله الحق؟

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي
بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَشْتَرُونَ مِنْ عِلْمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

ومما يثبت أنه الإله الحق

أنه أرسل كتاباً أثبت فيه صحة نسبه إليه^(١): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنزِلُوا عَشْرِ
سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ فإِنَّهُ يَسْتَجِيبُوا

(١) انظر الإيمان بالغيب، النموذج السابق.

لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٣، ١٤].

أما ادعاء الكافرين بوجود آلهة أخرى، فلقد فند القرآن تلك الدعاوى في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومنها قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وكذلك تفنيده لادعاء المدعين بوجود واسطة بين الله وعباده، أو وجود من يملك نفع العباد وضرهم غيره سبحانه: ﴿قُلْ أَقْرَبُكُمْ مِمَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون﴾ [يس: ٢٣].

ومع تقرير القرآن بعدم وجود إله آخر أو شريك مع الله أو زوجة أو ولد؛ فإنه أفرد مساحة كبيرة للحديث عن عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنه عبد لله مثل باقي البشر، وبسط القول في بيان ذلك بالأدلة العقلية: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦]. ﴿يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦، ٧٥].

كل هذا وغيره يشبهه القرآن بالدليل العقلي الدامغ الذي لا لبس فيه ولا غموض، مع مزج ذلك بخطابه الموجه إلى المشاعر وما يحمله من تخويف وترهيب للعباد من الوقوع في أي صورة من صور الشرك.. تأمل معي قوله تعالى وما يحمل من خطاب يتوجه إلى العقل فيقنعه، والمشاعر فيرهبها: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليًا جَعَلَا لَهُ

شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ الْهَدْيِ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٠-١٩٥].

أعمال يُفضل القيام بها وبمثلها

١ - قيل آنفاً إنه لكي تُشكل هذه الحقيقة جزءاً من يقين العبد وإيمانه لا بد من تكرار عرضها على العقل مع تجاوب المشاعر معها، وهذا يستدعي منا ونحن نقرأ القرآن في رحلة أو أكثر من رحلاتنا المباركة معه أن نتتبع المواضع التي تثبت أن للكون إلهاً، وأن هذا الإله هو الله عَزَّجَلَّ الواحد، وأنه لا يوجد إله غيره، ولا شريك له، ولا ولد، ولا صاحبة... ولا يوجد من يملك النفع والضرر للعباد سواء مهما كان صلاحه ومنزلته عند الله.

٢ - التفكر في مظاهر وحدانية الله في الكون، ففي كل شيء له آية... تدل على أنه الواحد، فنعيش مع آيات الله في السماوات والأرض من شجر وحجر ودواب، ونتفكر فيها ونثبت بعقولنا أن خالقها هو الله الواحد.

فعلى سبيل المثال: عندما نتفكر في ثمار البرتقال، ونجد أن الثمرة في مصر هي نفسها الثمرة في الشام أو في الهند أو في المغرب.. وأن ما تُسقى به هنا وهناك هو الماء... هذا يدل على أن الخالق واحد وإلا لاختلف الشكل الخارجي أو التقسيم الداخلي للثمرة.

انظر إلى الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار وإلى دقة نظامها.. فإن كان هناك إله مع الله فهل يمكن للكون أن يسير بنظام واحد؟! أم سيحدث اضطراب وخلل، وإذا كان لله ولد أو صاحبة - حاشاه سبحانه - هل سيستمر هذا النظام بهذه الدقة؟!

من هنا ندرك أهمية عبادة التفكير في ملكوت السماوات والأرض وربطها بالقرآن والاستدلال من خلالها على الله الواحد لتكون الثمار: يقيناً في العقل، وإيماناً في القلب يصل بالعبد إلى مرحلة الإحسان فيعبد الله كأنه يراه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) [الجاثية: ٣، ٤].

٣- ومما يؤكد هذه الحقائق، ويرتفع سريعاً ببناء الإيمان واليقين: استصحاب بعض الأذكار التي تشير إلى هذه المعاني والمداومة عليها، ومن هذه الأذكار ذكر: لا إله إلا الله، وذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وأيضاً الإكثار من قراءة سورة الإخلاص مع استحضار معانيها.



النموذج الثالث:

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالله واليوم الآخر له دور كبير في استقامة العبد، فالذي يعلم أن هناك حساباً على ما يفعله من أخطاء، وأن هناك سجنًا يُودع فيه المجرمون، فإن هذا من شأنه أن يدفعه لاجتناب الوقوع في المعاصي، فإن زلت قدمه يوماً سارع بالاعتذار والندم وطلب العفو والصفح.

إن الإيمان باليوم الآخر ركن ركين من أركان الإيمان؛ لذلك كان -ولا زال- المشركون ومن سار على نهجهم يحاولون التشكيك في قضية البعث والحساب ليستمروا في غيهم وظلمهم: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ ۝٥ يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

ولأهمية هذا الموضوع وضرورة الإيمان الراسخ به، فلقد أفرد له القرآن مساحة كبيرة وتناوله من عدة جهات:

تناوله من جهة إثباته بالأدلة العقلية الدامغة.

وتناوله من جهة كشف أسباب تكذيب الناس به.

وتناوله من جهة وصف أحداثه بشيء من التفصيل مع التركيز على مخاطبة المشاعر؛ لتزداد بذلك خشية الله والخوف منه؛ مما يدفع العبد للاستقامة والمسارة إلى الخيرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝٧٧ وَالَّذِينَ هُمْ رِئَاسَةٌ

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا لِقُلُوبِهِمْ وَجِلَّةً أُنْفُسَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴿المؤمنون: ٥٧-٦١﴾.

ومما لا شك فيه أن حجر الزاوية ونقطة البداية في هذا الموضوع هو إثبات البعث والمعاد، وهذا ما سيفرد له الحديث في الأسطر القادمة بعون الله وفضله.

إثبات المعاد

أثبت القرآن أن هناك حياة بعد الموت، وأن هناك بعثًا، وحشرًا، وحسابًا، وجنة يتنعم فيها الطائعون، ونارًا يُعاقب فيها العاصون.

ومن هذه الأدلة:

١ - إثبات صحة القرآن وصحة نسبه إلى الله عَزَّجَلَّ - كما ذكر سابقًا - ومن ثم تثبت صحة كل ما أخبر به من غيبات وأحداث مستقبلية.

٢ - قياس الغيبي على المشهود

فلقد دعا القرآن الناس إلى قياس الغيب على ما يشاهدونه، ومن ذلك:

• إحياء الأرض الميتة: فنحن نشاهد الأرض الجرداء والتي لا أثر للزرع فيها.. نجدها وقد أصبحت مخضرة بالزرع بعد نزول المطر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

• وكذلك الاستدلال على إمكانية البعث بخلق الإنسان من العدم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

• والاستدلال بالنوم - كموتة صغرى - على الموتة الكبرى، وبالاستيقاظ على البعث: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَاكٍ إِلَّيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

٣- إثبات القدرة المطلقة لله عَزَّجَلَّ

ولقد أفاض القرآن في إثبات القدرة المطلقة لله عَزَّجَلَّ؛ ومن ثم تصبح إعادة الخلق للحياة بعد الموت شيئاً يسيراً عليه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٠ - ٨٣].

٤- وقوع آيات تشبه البعث، أخبر عنها القرآن وأثبتها التاريخ

ومن ذلك قصة أهل الكهف الذين ظلوا نائمين ثلاثمائة عام، ثم بعثهم الله عَزَّجَلَّ وقد تغير كل ما حولهم، بينما بقيت أجسادهم كما هي لشهد على قدرة الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِم بِمَعْلُومَاتٍ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

٥- الوعد الحق

أخبرنا القرآن في مواضع كثيرة بوعود وعدها الله عَزَّجَلَّ في الماضي وحدثت بالفعل، وأخبر كذلك بوعده سبحانه بيوم الحساب ومجازاة المحسنين بالجنة،

والمسيئين بالنار.. فإن كان كل ما وعد به قد تحقق في وقته، فمن المؤكد أيضاً أن وعده بالجزاء سيتحقق: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فعلى سبيل المثال: أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أم موسى أن تلقي موسى عليه السلام في اليم، ووعدا بأنه سيرده إليها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ إِنَّا رَأَوُوهَ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وأوفى الله سبحانه وتعالى بوعدته: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ووعد سبحانه وتعالى بنصر الروم على الفرس فانتصروا، ووعد رسوله ﷺ بالعودة إلى مكة مرة أخرى بعد أن أخرجه منها قومه، فوفى بوعدته، ووعد سبحانه بحفظ القرآن من التحريف فوفى بوعدته، ووعد سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن بالبعث: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وسيوفي الله بوعدته.. ووعد المؤمنين بالنعيم في الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ووعد الكافرين بالنار: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَسَّ الْمِصْرُ﴾ [الحج: ٧٢].

[الحج: ٧٢]، وسيوفي الله بوعدته سبحانه.

٦ - النظام الحق العادل

أفاض القرآن في الحديث عن النظام الذي يحكم السماوات والأرض، ويبيِّن

أنه نظام حق عادل يجري وفق سنن وقوانين: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢].

هذا النظام الحق الذي ينظم حركة الحياة والموجودات.. من الطبيعي أن يُطبَّق على البشر كذلك باعتبار أنهم جزء من هذا الكون، ولكن الواقع يخبرنا بأن هناك البعض يُظلم والبعض يُظلم، وكلهم في النهاية يموتون.. البعض يرتكب أخطاء فاحشة ولا تتم معاقبته، وهذا بالطبع ينافي النظام الحق العادل الذي قامت عليه السماوات والأرض، إلا إذا كان هناك ملحق آخر للحياة يتم فيه مجازاة الظالمين، والانتصار للمظلومين، ومحاسبة المخطئين.

تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢٢] ﴿[الجاثية: ٢٢]. فالآية تربط بين الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض وبين تطبيق نظام الجزاء على البشر: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ ٧ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ ٨ ﴿[التين: ٧، ٨].

والقرآن به العديد من الآيات التي تحدثنا عن هذا الأمر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ٢٧ ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ٢٨ ﴿[ص: ٢٧، ٢٨].

أعمال يُفَضَّلُ القيام بها وبمثلها لتثبيت هذه العقيدة في القلب

١ - لكي تصبح عقيدة الجزاء راسخة في يقين العبد وتشكل جزءاً أصيلاً من إيمانه لا بد من تكرار عرضها على العقل ليتفكر دوماً فيها، فترسخ في يقينه، وأن يتكرر كذلك عرضها على المشاعر لتستحوذ على جزء معتبر منها.. وهذا ما يفعله

القرآن لكثرة عرضه لمسألة البعث والجزاء، ومخاطبته للعقل، وإقناعه بها، وإلهابه للمشاعر من خلال عرضه لأهوال يوم القيامة.

من هنا كان من الضروري أن نستفيد من القرآن في البناء الصحيح لعقيدة الجزاء، ولا نكتفي بما عندنا من تصور عقلي محدود، بل لا بد أن تصبح هذه العقيدة راسخة في عقولنا وقلوبنا، لتثمر تقوى واستقامة على أمر الله، وهذا يستدعي منا التركيز على المحاور الستة السابقة وغيرها مما أثبت به القرآن البعث والجزاء، وذلك من خلال رحلتنا المباركة مع القرآن، وحبذا لو أفردنا ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، مع الاجتهاد في تجاوب المشاعر قدر الإمكان مع الحقائق التي تظهرها الآيات.

والجدير بالذكر أن القرآن قد تحدّث باستفاضة عن اليوم الآخر ومشاهده كلها، بدءاً من لحظة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور وما بعده من حشر، وميزان للأعمال، وتطهير الصحف، والعرض على الله عزَّجَلَّ، والمرور على الصراط ... والشاهد هنا أن القرآن لم يقتصر في حديثه عن الآخرة على لحظة الوفاة والجنة والنار فقط، بل تحدث طويلاً عن أحداث اليوم الآخر كله وعلينا -ياذن الله- ونحن نقرأ أن نتفكر في هذه المشاهد ونتصور أنفسنا فيها، ونتفاعل معها بمشاعرنا.

٢- تخصيص وقت للتفكير في آيات الله الماثلة في الكون، والاستدلال من خلالها على قدرة الله المطلقة، وعلى أن هناك نظاماً عادلاً ودقيقاً يحكم حركة الأشياء، وأنه من اللازم أن يُطبق على البشر، وهذا يستدعي وجود ملحق للحياة بعد الموت.. تأمل معي قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١١٠﴾

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطَلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فهؤلاء الصالحون قادهم التفكير في ملكوت السماوات والأرض إلى الوصول إلى حقيقة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطَلًا﴾، وأن هناك حسابًا: ﴿سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٩١﴾.

٣- الالتزام بدعاء الاستفتاح عند قيام الليل، والذي كان رسول الله ﷺ يقولُه إذا قام الليل يتهجّد: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قِيَامُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَآخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِی لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).



(١) رواه مسلم (٥٣٢/١) برقم: (٧٦٩)، والبخاري (٤٨/٢) برقم: (١١٢٠)، واللفظ لمسلم.

النموذج الرابع:

الدنيا دار امتحان

والهدف من التعامل مع هذا الجانب المهم: أن يرسخ في يقيننا ويشكل جزءاً أصيلاً من إيماننا أن الدنيا ما هي إلا دار امتحان، وأن مصير العبد يوم القيامة يتوقف على أعماله فيها.

ولقد تناول القرآن هذا الموضوع بشيء من التفصيل بداية من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس عن ذلك، ثم طرده من رحمة الله:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١-٧٨].

ويخبرنا القرآن أن إبليس طلب مهلة من الله عَزَّجَلَّ قبل تنفيذ العقوبة؛ ليعمل فيها على إضلال بني آدم وسوقهم معه إلى النار انتقاماً لنفسه وإظهاراً لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ليس أفضل منه:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٧٩-٨٣].

البداية

ويستمر القرآن في سرد قصة وجودنا على الأرض، والتي بدأت بخلق آدم ثم إسكانه الجنة هو وزوجه، ووسوسة إبليس لهما ليخرجهما من دارهما، ونجاحه في ذلك، وتوبة آدم وزوجه وقبول الله عَزَّجَلَّ لتوبتهما: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ عَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومع قبول الله عَزَّجَلَّ لتوبة آدم وزوجه فإنه سبحانه أخبرهما بحتمية الهبوط إلى الأرض ليتم فيها اختبار العودة إلى الجنة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].. فما الأرض -إذن- إلا قاعة اختبار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَتَيْتُمُ احْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

إنه اختبار في عبادة الله بالغيب في ظل تمتع البشر بخاصية حرية الاختيار، مع وجود النفس الراغبة في نيل الشهوات، الكارهة للتكاليف.

وحدد لنا سبحانه وتعالى شكل العبودية التي يريدها منا من خلال منهج وأدوات، وجعل المنهج ميسراً وسهلاً: تكاليف قليلة، أوامر ونواهٍ ضمّنها كتابه، وشرحها رسوله ﷺ، أما الأدوات فهي ما يعطيه -سبحانه- لعباده أو يمنعها عنهم.. فيعطي بعضهم أشياء مثل المال، والصحة، والمنصب.. ويمنعها عن آخرين.

والهدف من العطاء: الشكر، ومن المنع: الصبر.. فمن أُعطي مالا ولم يشكر الله عليه فقد رسب في هذا الاختبار، ومن حرم الأولاد فصبر ورضي فقد نجح وحقق المطلوب منه.

فالعبد الصالح يستقبل العطاء، أي عطاء، مستشعراً قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿هَذَا مِن

فَضِّلْ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٤٠].

والآخر يستقبله وهو يردد: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وهو لا يدري أنه اختبار: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الزمر: ٤٩].

ويذكرنا الله عَزَّجَلَّ أنه ليس لأحد أن يملك شيئاً من الدنيا، فكل عطاء مسترد، وسنخرج منها كما دخلنا فيها، فالله عَزَّجَلَّ هو الذي سيرث الأرض ومن عليها من ذهب وفضة... وما علينا إلا أن نردد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ [البقرة: ١٥٦].

لماذا الاختلاف بين الناس؟!

فإذا ما تبين ذلك سهلت الإجابة عن السؤال الذي يشغل بال الكثير وهو: لماذا الاختلاف بين البشر في العطاء والمنع، وأيهما أفضل: الغنى أم الفقر؟ من عنده أولاد أم من حرم منهم؟!

الأفضل من ينجح في مادته.. فالغني الشاكر خير من الفقير غير الراضي وغير الصابر، ومن حُرِم الأولاد فَصَبَرَ خير ممن رزق الأولاد ولم يشكر الله عليهم.

فالعبرة بالكيفية التي نتعامل بها مع المنع والعطاء، ويتضح هذا جلياً في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

أما الشيطان فهو يدخل علينا من نفس مداخله على أبويننا: الملك، والخلد.. فيزين لنا العطاء على أنه ملك حقيقي، ويهرج الدنيا أمام أعيننا، فنحبها ونتشبث بها ونتصارع عليها، ثم نفاجأ بعد ذلك أننا لم نجن من ورائها إلا السراب: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٢٠﴾ [النساء: ١٢٠].

إنها القصة المكررة منذ القدم.

فإذا كان هذا هو المنهج، وهذه هي الإجابة المطلوبة، فما هو زمن الامتحان؟! ومن الذي يتولى الرقابة عليه؟!

أخبرنا الله عَزَّجَلَّ أن زمن الامتحان يبدأ من وقت البلوغ والتكليف، وينتهي عند نزول الروح من الجسد، وأخبرنا كذلك بأن باب التوبة مفتوح طوال هذه الفترة، فلنا أن نمحو كل الإجابات الخاطئة ونأتي بالصائبة مكانها ما لم نغرر.

أما تسجيل الإجابات والرقابة على الأرض فتتولاها أكثر من جهة؛ فالملائكة تسجل كل أعمالنا: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

وأجسامنا شاهدة علينا: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

والكون كله يراقبنا: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩].

ومع هذا كله فالله عَزَّجَلَّ قد أحاط بكل ذلك، فهو: الشهيد - الرقيب - السميع - البصير - القريب - المحيط، قال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

فالرقابة الدائمة المشددة، وعدم معرفة وقت نهاية الاختبار يستلزم منا شدة اليقظة، ودوام محاسبة النفس، والحذر من الشيطان، وكثرة التوبة والإنابة إلى الله.

ويبقى السؤال: متى الحساب وإعلان النتيجة؟

يخبرنا القرآن في عشرات الآيات بما سيحدث للأرض بعد انتهاء امتحان آخر مجموعة من البشر: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ⑤﴾ [الانشقاق: ١-٥].

فالأرض بعد انتهاء دورها تُخرج كل من فيها من البشر، ثم تتحطم ليبدأ يوم الحساب في أرض المحشر.

الكل سيحاسب: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنِّ الْمَفْرُجُ ⑩ كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُبْئِئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬﴾ [القيامة: ١٠-١٣].

جميعنا سيأتي يوم القيامة، ولكن كل واحد بمفرده دون حاشية أو أقارب أو معارف: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ⑮﴾ [مريم: ٩٥].

وستخرج معنا صحيفة أعمالنا وإجاباتنا عن كل شيء: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ⑯ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⑰﴾ [الأنبياء: ١٣-١٤].

إنه يوم عصيب: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑱﴾ [المزمل: ١٧].. فيه: ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ⑳ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ㉑ وَصَدِيقِهِ وَبَنِيهِ ㉒ لِكُلِّ فِرَاقٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ㉓﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].. يتولى فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الحساب مع كل فرد: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ㉔ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ㉕﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتوزع الشهادات: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، يَمِينِهِ ㉖﴾

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ مَّسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

فينطلق الناجحون إلى الجنة ليتنعموا فيها بالملك والخلد: ﴿وَلِإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠]، ويساق الراسبون إلى النار حيث الحبس والعقوبة الأليمة: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم: ٦].

أعمال يُفضل القيام بها

١ - هذا الجانب الخطير نعلمه بصورة عامة، لكننا لا نمارس مقتضى هذا العلم في واقع حياتنا بالصورة المطلوبة؛ بسبب عدم رسوخه في يقيننا، وعدم استحوازه على جزء من إيماننا، وكذلك بسبب غفلتنا وانشغالنا بالدنيا.. من هنا اشتدت الحاجة إلى دوام تذكّر حقيقة أن الدنيا دار امتحان، وكيفية التعامل مع أدواتها، وغير ذلك من الحقائق السابق ذكرها.. من هنا كان من المناسب تخصيص رحلة أو أكثر من رحلاتنا المباركة مع القرآن، والتي تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس لهذا الموضوع المهم؛ فنعيش مع حقائقه وتفصيلاته منذ البداية حتى النهاية، وأن نعمل على تجاوب القلب مع هذه الحقائق.

٢ - رحلات الحقيقة: والمقصود برحلات الحقيقة أن نقوم بزيارة الأماكن التي تذكرنا بحقيقة الدنيا وأنها لا قيمة لها، وتذكرنا بالموت، وأنه قريب منا، ومن الأماكن التي تذكرنا بهذه الحقائق: المقابر، وكذلك رؤية المحتضرين، وزيارة المرضى، والنظر إلى الخرائب والمزابل لرؤية مآل الدنيا وحقيقتها.

٣- كثرة الجلوس مع المساكين والفقراء وإعزازهم وعدم الافتخار عليهم،
فالكل في امتحان.

٤- تعويد النفس على عدم إطالة النظر في صور نعيم أهل الدنيا من مركبات
فارهة، وملابس فاخرة، ومساكن واسعة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].



النموذج الخامس:

الإيمان بالله الوهاب

والهدف من الإيمان بالله الوهاب: التعرف عليه سبحانه، من خلال صفة الإنعام، وهذا من شأنه أن يُمكن لحبه في القلب، ويدفع العبد للعمل الدائم على شكره.

والإيمان بالله الوهاب يستدعي معرفة ما وهبه الله لعباده من نعم كثيرة، وكلما توسع العبد في التعرف عليها بعقله، وتجاوب معها بقلبه ازداد حبه لربه، ولم لا وقد جُبلت القلوب على حب من يحسن إليها؟! وكلما زاد الحب ازدادت المسارعة للطاعة بتلقائية ولذة وشوق.

معنى ذلك أن نقطة البداية للوصول لهذه النتائج المبهرة من حب وطاعة، وأنس وشوق إلى الله هي التعرف على النعم ودوام ذكرها.. ولقد أفاض القرآن في بيان أهمية تذكر نعم الله، وتحدثت كثير من آياته عن أنواع تلك النعم: ﴿فَاذْكُرُواْ ۚ اِلٰهَآءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩].

ويمكن تقسيم النعم إلى عدة أقسام ليسهل استخراجها من القرآن، وإدراجها في القسم الذي يناسبها.. ومن ذلك:

• **نعم الخلق والإيجاد:** فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أوجدنا، وخلقنا من العدم: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِيْ اَنْشَاَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَرَ وَالْاَفْئِدَةَ قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُوْنَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الملك: ٢٣].

أتدري عدد خلايا جسمك التي أوجدها الله عَزَّوَجَلَّ فيك؟

إنها تبلغ من ثلاثين إلى أربعين تريليون خلية.. كل خلية منها لها وظيفة أو وظائف محددة.

أتعلم أنه سبحانه قد أوجد لك كُليتين.. يوجد بالواحدة منها حوالي مليون مصفاة لتصفية الدم من السوائل والسموم، وذلك مرات ومرات في اليوم الواحد.. أما القلب فقد أوجده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جسدك ليقوم بدور خطير في ضخ الدم المحمل بالأكسجين إلى سائر أنحاء الجسم لتستمر الحياة... فإذا نظرت إلى الكبد والرئتين وأنظمة الجسم المختلفة مثل نظام الهضم والامتصاص والإخراج، فما عليك إلا أن تسبح هذا الإله المقتدر الذي أوجد هذا كله من العدم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل: ٧٨].

• **نعم الإمداد:** فالله عَزَّجَلَّ يمدنا ويمد الكون كله بأسباب ومقومات الحياة لحظة بلحظة وأنا بأن: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

يمدنا بالماء والغذاء.. يمد أجهزة الجسم بالقدرة على القيام بوظائفها.. يمد اللسان بالقدرة على الكلام، والعين بالقدرة على الرؤية، والأنف بالقدرة على الشم، والأذن يمدّها بالقدرة على السمع، واليد بالقدرة على البطش والرجل بالقدرة على المشي وحمل الجسم، والقلب بالقدرة على ضخ الدم حوالي سبعين مرة في الدقيقة.. يمد جهاز المناعة بالقدرة على مقاومة الأمراض.. يمد كل خلية في كل لحظة بأسباب حياتها وبالقدرة على القيام بوظائفها.

يمد النار بالقدرة على الإحراق، والماء بالقدرة على الإرواء، والدواء بالقدرة

على الشفاء لحظة بلحظة.. فنحن من الله خلقاً وإيجاداً، وبالله إمداداً، وإلى الله مرجعاً ومنتهى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمَحْنِ وَالزَّرْعِ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

• **نعم التسخير:** خلق الله عزَّ وجلَّ الإنسان وكرَّمه على جميع خلقه، وأسجد الملائكة لأبيه آدم، وخلق الكون وسخره له، بل وجعل الجسد خادماً مسخراً له، يأتى بأوامره.. كل هذا الفضل كي يتفرغ للقيام بالمهمة العظيمة التي خلق من أجلها، ألا وهي عبادة الله عزَّ وجلَّ.

فإذا نظرنا إلى نعم التسخير لوجدناها لا تُعد ولا تُحصى.. منها: تسخير الشمس بنظامها الدقيق لتصبح خادمة للإنسان تمدّه بالضياء والطاقة، وتسخير القمر ليساعده على معرفة الأيام، وتسخير الليل ليكون مبعثاً على السكون والراحة بعد نهار مسخَّر للعمل والسعي.

سخر الهواء ليمدنا بالأكسجين، وسخر النبات لإمدادنا بشتى أنواع الأطعمة.. لم تمتنع الأشجار يوماً عن طرح ثمارها للبشر، ولم تمتنع الدواب يوماً عن حملنا وإعطائنا لحومها.

أما داخل الجسم فنعم التسخير ظاهرة في كل شيء: فالعين مسخرة لرؤية الأشياء، واللسان للتعبير عما نريد، واليد للكتابة والبطش.. والرجل للحركة والذهاب للمكان الذي نريده.. سخر سبحانه وتعالى المخ للتفكير واتخاذ القرار: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحج: ١٣].

• **نعم الحفظ:** ومع نعم الإيجاد والإمداد والتسخير فهناك نعم الحفظ..

حفظ الكون بما فيه.. وحفظ الجسم وما يحتويه.

فيحفظ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى السماء أن تقع على الأرض، والشمس أن تخرج من مدارها أو تقترب من الأرض فتحرقها، أو تبتعد عنها فتتجمد.. يحفظ البحار من إغراق الأرض.. ويحفظ نسب الغازات في الهواء.. يحفظ التوازن البيئي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

يحفظ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الجسم من الأمراض.. يحفظ تريليونات الخلايا كل طرفة عين من أن تفقد خلية منها وظيفتها فتتحول إلى خلية سرطانية.

يحفظنا عند النوم.. ويحفظ أولادنا، ويحفظ ويحفظ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

• **نعم الأمن والستر:** من الحوادث والحرائق وقُطَاعِ الطرق.. من التقلبات

الجوية، والظواهر الكونية: كالزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف..

• **نعم الهداية:** الهداية إلى الإسلام وإلى الإيمان.. وكفى بها من نعم:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

• **نعم الثبات:** على الإسلام.. على الإيمان.. على حب الجهاد.. على حب

الإنفاق.. على الصلاة في المسجد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

• **نعم التيسير والتوفيق والسداد:** قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

• **نعم العصمة:** من الكفر والظلم وأكل الحرام والجور والذنوب و... ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

• **نعم الإمهال:** وعدم أخذنا وقت معاصينا بل إعطائنا الفرصة تلو الفرصة للتوبة إليه.

• **نعم الاجتباء وسبق الفضل:** ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، فنحن لم نختر الزمان الذي وجدنا فيه، ولا المكان، ولا الأبوين. تخيل لو كنت ابناً لرجل بوذي أو هندوسي أو مجوسي أو صليبي أو شيوعي، ماذا كنت فاعلاً؟

وتخيل لو كنت في بيئة تتحدث غير اللغة العربية، كيف ستفهم القرآن؟ وتخيّل أنك ولدت أيام الفتن، أو مع آل فرعون، أو مع قوم لوط، أو في زمن الفترة^(١).

وتخيّل أنك نشأت يتيم الأبوين، أو وجدت البيئة من حولك بيئة فسق وفجور. تخيل ثم تخيل لتستشعر غرقك في نعم الله وفضله.

وسائل عملية

لن يتم ترسيخ هذا الجانب الإيماني المهم في قلوبنا إلا إذا قمنا بإحصاء نعم الله علينا - قدر المستطاع - مع استشعار فضله العظيم الذي أغرقنا فيه، وهذا يستدعي منا:

(١) المقصود بها المدة التي كانت بين سيدنا عيسى عليه السلام وبيننا محمد ﷺ.

١ - التعرف على نعم الله علينا من خلال القرآن.. فنخصص ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، نتعرف من خلالها على جوانب النعم المختلفة -والتي سبقت الإشارة إليها- ونجتهد في استثارة المشاعر مع آيات النعم قدر الإمكان، وترديد الآية التي تؤثر في القلب.

٢ - العمل على إحصاء نعم الله الخاصة بالواحد منا، وذلك من خلال الجوانب السابقة، وحبذا لو تم تخصيص كراسة لذلك.

٣ - تخصيص وقت يومي -ولو لمدة دقائق- نتذكر فيها نعم الله علينا في هذا اليوم، ونُكثّر من حمده بعدها، فللحمد في هذا الموضع مفعول خاص على القلب في زيادة إيمانه؛ لأنه يعبر عن الحالة الشعورية التي يعيشها ويستفرغ امتنانه وشكره بولي نعمته.

٤ - سجود الشكر بعد كل نعمة متجددة أو توفيق يصاحبنا.

٥ - جلسات ذكر النعم: وذلك بأن نجلس مع أهلنا وأولادنا وأصدقائنا، فتذكر نِعَم الله علينا، بخاصة بعد كل توفيق ونجاح يصاحبنا، فنعدد جوانب النعم التي أظهرها لنا هذا النجاح.

٦ - التَّعُود على ربط النعمة بالمنعم: فلا تقل: أنا فعلت كذا وكذا، ولكن قل: بفضل الله فعلت كذا.

٧ - الإكثار من الحمد بصفة عامة، وكذلك الأدعية الماثورة للحمد بعد الطعام والشراب، والاستيقاظ، واللباس.

٨- مناجاة الله في الصلاة والدعاء بذكر نعمه علينا، وتعداد هذه النعم في دعائنا كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٩]. ومن أعظم أوقات المناجاة جوف الليل.



النموذج السادس:

الإيمان بالله الودود

ومعنى الودود أي المُحِبُّ لعباده.

وهذا الجانب الإيماني من أهم الجوانب على الإطلاق، ولم لا والعبد كلما تعرف على مدى حب ربه له، وقدر المعاملة التي يعامله بها، فإن هذا من شأنه أن يجعله دومًا حسن الظن به، ويجعله كذلك يحبه ويشتاق إليه، ويستقبل أقداره بنفس راضية، ويسارع إلى طاعته، وسينعكس ذلك على علاقته بالناس؛ فتجده يحرص على هداهم، ويحلم عليهم، ويلين معهم.

من هنا كان من الضروري الاهتمام بهذا الجانب الإيماني، وأن يكون من أوائل ما نبنيه في قلوبنا. فمن خلال رسوخه في يقيننا واستحواذه على جزء من مشاعرنا فإن ذلك من شأنه أن يعيد صياغة العلاقة بيننا وبين الله عزَّجَل؛ لتصبح علاقة حب وود وشوق ورضا وسعادة.. هذه العلاقة سيكون -بلا شك- لها أكبر الأثر في التعامل مع أحداث الحياة ومع العبادة.. بمعنى أننا لن نتحرك في حياتنا وفي عبادتنا بدافع الخوف من الله فقط، ولكن بحادي الحب والشوق إليه سبحانه كذلك، فنهرع إلى الصلاة مرددين قول حبيبنا ﷺ: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بَلَاءُ»^(١)، وكذلك في كل أمور حياتنا.

(١) المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢٧٧ برقم: ٦٢١٥).

لماذا يحبنا الله عَزَّوَجَلَّ؟!

الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده البشر حبًّا خاصًّا عن سائر مخلوقاته، وَلَمْ لَا وفيهم نفخة من روحه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم، وكرمهم على سائر خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وليس أدل على حب الله الخاص لعباده من تقرب الملائكة إليه سبحانه من خلال الدعاء والاستغفار لمن في الأرض من البشر، كالرجل الذي يريد أن تكون له منزلة عند رجل آخر، أو يريد قضاء حاجة عنده فيُثني على أولاده، ويدعو لهم، ولله المثل الأعلى:

﴿وَالْمَلٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥]،
﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

من هنا يتبين لنا لماذا يتودد الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ويتحبب إليهم، ويعاملهم بلطف ورحمة وإحسان، ويريد لهم جميعًا الخير.. مؤمنهم وكافرهم.. برهم وفاجرهم، فهو سبحانه يريد من كل فرد تطأ قدماه الأرض، حتى اليهود والنصارى وقطاع الطرق واللصوص أن يعودوا إليه ويستجيبوا له ويطيعوه ليدخلهم الجنة: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

مظاهر الود

ولقد أفاض القرآن في بيان مظاهر الود الإلهي لعباده، فعلينا أن نتبعها في تلاوتنا للآيات، وأن نحرص على تجاوز المشاعر معها.

وإليك -أخي القارئ- بعضاً من هذه المظاهر:

إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخَيْرُ لَجَمِيعِ عِبَادِهِ وَدَعْوَتِهِمُ الدَّائِمَةُ لِلتَّوْبَةِ بمن

فيهم اليهود والنصارى، بالرغم مما يدعونه عليه سبحانه من دعاوى باطلة، يهتز لها الكون.

فإن كنت في شك من هذا فابحث عن الآيات التي تخاطبهم وما فيها من صور التودد: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨].

لو كان سبحانه يريد لهم النار جزاء ما فعلوه فلماذا يخاطبهم بهذه الطريقة، ويناديهم ببني إسرائيل، ويربطهم ببنيه يعقوب؟!

هذا مع اليهود، أما مع النصارى فالآيات التي تدعوهم للتوبة كثيرة رغم ما فعلوه.. تأمل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]. ثم تأمل الآية التالية لهذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤].

ويتسع ذلك الود ليشمل سائر البشر.. فالباب مفتوح أمام الجميع مهما كان جرمهم، فقطاع الطرق الذين يروعون الأمنين لو تابوا قبل أن يُقام عليهم الحد

فسيقبل الله توبتهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

بل إن الذين يفتنون الناس عن دينهم ويعذبونهم.. فإنهم لو تابوا لتاب الله عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قبوله اعتذار المعتذرين

من دلائل حب الله لعباده أنه يسمح لهم بالاعتذار عما يرتكبونه من أخطاء مهما كان حجمها، ويكتفي منهم بالندم والاعتذار والاستغفار، فيعفو عنهم وكأن شيئاً لم يكن.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

هكذا بكل يسر.. قال: رب اغفر لي فغفر له.. فماذا تقول بعد ذلك؟!

ماذا تقول لرب يريد من عباده أن يستغفروه ليغفر لهم على ما كان منهم، ولا يبالي بحجم ما فعلوه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١١٠] وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [١١١] ﴿[النساء: ١١٠، ١١١]

حلمه علينا

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يتربص بعباده، ولا ينتظر أخطاءهم ليعاقبهم، بل يحلم عليهم ويتجاوز عن زلاتهم وهفواتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

تأمل قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

شريعته كلها رحمة

فمن أعظم دلائل حب الله لعباده أن شريعته التي شرعها لهم كلها تصب في مصلحتهم والرحمة بهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والكثير من الآيات تبين لنا الحكمة من التشريع وأنها رحمة بنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٠] إِنَّمَا
يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

ومع بيان الحكمة من التشريع وربطها بمصلحتنا، نجد كذلك أن الله عزَّ وجلَّ
يحبنا في العبادة، ويبين لنا أنها لن تستغرق منا وقتاً طويلاً حتى يسهل علينا القيام
بها، كقوله تعالى عن الصيام: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وفي الحج: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

مراعاة حالات الضعف والحرص التي قد يقع فيها المسلم

ومع أن العبادة المطلوبة من المسلم لا تستغرق وقتاً طويلاً في يومه إلا أنه
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخْفِضُهَا عَنْهُ وَقْتُ الْاضْطِرَارِّ وَالْمَشَقَّةِ؛ رفعا للحرص، ومراعاة للضعف
البشري، فعلى سبيل المثال:

الصيام: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والصلاة في الحرب: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ومن صور الود الإلهي:

خطابه الودود لعباده، والذي يقطر عطفًا وحنانًا وشفقة ورأفة بهم وإرادته

الخير لهم ودخولهم الجنة

كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

نصائحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ

فالله عزَّ وجلَّ دائم النصيحة لعباده بما ينفعهم، ويقربهم من الجنة، ويحذرهم من الشيطان، ومن الانشغال بالدنيا.

كقوله تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ أَلْهُوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [٥٦].

[فاطر: ٥، ٦].

معاملته الكريمة لنا

فمن العدل أنه من يعمل سيئة أو حسنة فإنه يُجزى بمثلها، ولكنه سبحانه لا يعاملنا بهذه الطريقة، بل بكرم عجيب: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إنه سبحانه يريد أن يرى منا أي حسنة لكي ينميها ويزيدها لنا: ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزَدْنَاهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

ومن صور الكرم الإلهي أيضاً: الهبات والمنح والهدايا التي يرسلها لعباده كل فترة لتكون بمثابة الأمل والحافز لتدارك ما فاتهم، وللحاق بركب المؤمنين السائرين إليه وإلى جناته. ومن هذه المنح: ليلة القدر.. ففي هذه الليلة يمنح سبحانه من يحييها بالعبادة عطية لا يمكن تصديقها، ألا وهي ثواب يكافئ ثواب عبادة ألف شهر بل يزيد: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢، ٣]، وصيام يوم عرفة يكفر سيئات عامين، أما صيام يوم عاشوراء فيكفر سيئات عام..

خطابه المطمئن لنا

من صور حب الله لعباده طمأننتهم من ناحيته سبحانه، فهو دوماً يذكرنا بأنه رب رحيم ودود حلیم غفور رءوف.. رحمته تسبق عذابه، وحلمه يسبق غضبه.

والمأمل للقرآن يجد أنه يغلب عليه الحديث عن الرحمة والرجاء في الله، وليس أدل على ذلك من بدء كل سورة بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، وكأنها رسالة تطمين للجميع بأن ربكم رحمن رحيم.

ومما يؤكد هذا المعنى أن تخويفه لعباده غالباً ما يقرن بذكر الرحمة والمغفرة

والرأفة حتى لا يقنط أحد من رحمته فيشرد بعيداً عنه، تأمل معي قوله تعالى:

﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَوْا لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ عَسَىٰ تَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

رحمته الخاصة بالضعفاء والمساكين وأصحاب الاحتياجات الخاصة

فهو سبحانه ابتلى البعض بالفقر أو اليتيم أو الممرض أو...، هذه الابتلاءات لا تنقص من قدرهم شيئاً عنده، فالدنيا ليست دار جزاء، والخاسر من يخسر نفسه يوم القيامة ولا يدخل الجنة..

ومع ذلك فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسْتَحِثُّ عِبَادَهُ عَلَىٰ مَعَامَلَةِ هَؤُلَاءِ الْمَبْتَلِينَ بِرَحْمَةٍ وَعُطْفٍ وَشَفَقَةٍ مَرَاعَاةَ لُظُوفِهِمْ، فتجد الحث الدائم في القرآن على المعاملة الخاصة لهؤلاء الضعفاء: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

ومع هذا التوجيه الإلهي بمساعدة المبتلين، يأتي التوجيه كذلك بمراعاة مشاعرهم وعدم إيذائهم، والمنّ عليهم بتلك المساعدة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده عن سبب عقوبتهم - إن عاقبهم - وسبب إهلاك الأمم السابقة، مع أنه الإله العظيم الذي لا يُسأل عما يفعل، فيخبرهم سبحانه أنه لا يعاقب أحداً إلا بسبب ذنب اقترفه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

بل إن هذه العقوبة الدنيوية رحمة منه سبحانه بهم، ولم لا وتأجيل عقوبتهم

إلى يوم القيامة معناها النار والعياذ بالله. أما في الدنيا فهي تطهير وتخليص من الذنوب.

إذن العقوبة في الدنيا لها دور كبير في تطهير العبد من ذنوبه.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن لها فائدة عظيمة في تذكير الناس بربهم، وبضرورة عودتهم إليه قبل فوات الأوان: ﴿وَأَخَذْتَهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

أما هلاك الأمم السابقة فلقد أفاض القرآن في بيان أسبابه، وأنهم هم الذين بدأوا بالإساءة، وأصروا عليها، وأن الله عَزَّجَلَّ صبر عليهم طويلاً، لكنهم لم يكفوا عن غيهم فاستدعوا غضبه بعد طول حلمه.

لماذا يذكر الله لنا كل هذا، وهو الإله العظيم الذي يفعل ما يريد ولا ينبغي أن يُسأل عنه؟

نعم، يذكر لنا أسباب عقابه لتطمئن قلوبنا من ناحيته سبحانه، فلا نتعامل معه بهلع وفزع، ولا نستشعر تربصه بنا، أو معاقبتنا بلا سبب، فهو سبحانه لا يظلم أحداً.. تأمل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ رَوَيْتَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [٣٩] ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠].

ومن أجلّ صور الود: أنه سبحانه يعلمنا ما نقول ليعفو عنا، ويُعطينا سؤلنا

تأمل معي قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومع بني إسرائيل: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨].

ومن صور ذلك أيضًا: تلك الأدعية التي ضمنها كتابه، وتحمل في طياتها معاني كثيرة لو أردنا أن نعبر عنها لا حتجنا الكثير والكثير من العبارات، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [البقرة: ٢٨٦].

استئارة همتنا لفعل الخير

من صور الود العجيبة أنه سبحانه يستثير همتنا لفعل الخير مع غناه التام عنا وعن عبادتنا، فهو الغني الحميد.

تأمل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ [الحديد: ١١].

أليس المال ماله، فلماذا يستقرضنا ويعدنا بمضاعفة أموالنا أيضًا؟! لِمَ كل هذا؟! إنه الحب الإلهي لعباده وإرادته تزكيتهم وتطهيرهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ترغيبه لعباده في مساعدة بعضهم البعض حرصًا منه سبحانه على مصالح عباده، ومن دلائل ذلك ترغيبه الشديد في الدعوة إليه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [فصلت: ٣٣].

فلا عجب أن يكون مقامها من أشرف المقامات عنده: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴿[الجن: ٢٢، ٢٣].

وما قتال الكافرين إلا لإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين دعوتهم إلى الله: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَفَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٣) [البقرة: ١٩٣].

ومما يلحق بهذا الجانب أيضًا: ترغيبه لعباده في العفو عن بعضهم البعض ليدخلوا الجنة معًا: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) [النور: ٢٢].

تذكيرنا بأخطاء من سبقونا كي لا نقع فيها، ولقد أفاض القرآن في عرض نماذج تلك الأخطاء والتي تتكرر في كل زمان ومكان.

ومن ذلك عرضه لنموذج فرعون وتكبره وطغيانه، ونموذج قارون وغروره بماله، ونموذج عاد وغرورهم بقوتهم.. ونموذج سبأ وإعراضهم عن شكر الله.

ومن عظيم دلائل حبه لنا إخبارنا بما سيحدث بعد الموت من أحداث، أهمها البعث والحساب.. كل ذلك أفاض فيه القرآن بتفصيل شديد فأصبحنا وكأننا نراها رأي العين؛ ليحسن استعدادنا ليوم القيامة.. لتأمل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢) [الحج: ١، ٢].

ومع إخبارنا بما سيحدث يوم القيامة من أحداث، فإنه سبحانه قد أخبرنا

بنماذج مختلفة من الناس وأحوالهم في هذا اليوم كالغافل، والمجرم، والمتكبر، والمغرور، والظالم حتى لا نغتر بالدنيا، وحتى نسارع بالفرار إلى الله قبل فوات الأوان.. تأمل قوله تعالى وما يمكن أن يترك في النفس من خوف وحذر ثم استقامة وورع: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٣، ٩٤].

الترغيب والترهيب

ومن صور الود الإلهي لعباده تخويله وترهيبه لهم بالنار، وعرضها بصورة مخيفة مرعبة كي يسارعوا بالعمل على الهروب منها: ﴿لَهُمْ مِنْ قُودِهِمْ طُلُوءٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَهُ فَانْقُورُوا ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

وفي مقابل ذلك نجد التشويق والترغيب في الجنة من خلال عرض صور نعيمها بتفصيل وتشويق لتستثار الهمم، وتتعلق القلوب بذلك النعيم؛ مما يؤدي إلى المسارعة في الخيرات وفعل كل ما يقرب إليه - سبحانه - وإلى جنته: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنْ هُوَ خَالِدًا فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

ومن شاء فليتبّع الآيات التي تصف نعيم الجنة فالقرآن يزخر بها.

أعمال يُفَضَّل القيام بها

١- هذه الصور العظيمة للود الإلهي لن يتمكن مدلولها ويرسخ في يقين العبد، ولن تشكل جزءاً من إيمانه إلا إذا تم تكرار عرضها على العقل والقلب، وهذا يستدعي منا تخصيص أكثر من ختمة لهذا الموضوع المهم، والبحث عن تلك المظاهر في الآيات، مع العمل على تجاوب المشاعر معها حتى تتم الفائدة المرجوة بإذن الله.

٢- مناجاة الله وإظهار حبنا له.

٣- كثرة حمد الله.

٤- دعاء الله بالأدعية الماثورة التي تظهر حب العبد له عَزَّجَلَّ، مثل قول رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ لِي فَرَاغًا فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا، اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْكَ، وَإِلَى مَلَائِكَتِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ أَحْبِبْ قَلْبِي بِحُبِّكَ وَاجْعَلْنِي لَكَ كَمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَحَبَّ بِقَلْبِي كُلِّهِ، وَأَرْضِيكَ بِجَهْدِي كُلِّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبِّي كُلَّهُ لَكَ، وَسَعْيِي كُلَّهُ فِي مَرْضَاتِكَ»^(١).



(١) وردت ألفاظ هذا الحديث في سنن الترمذي (برقم: ٣٤٩٠، ٣٤٩١) وكذلك في الفتوحات الربانية (٤/ ٤٠٠) لابن حجر.

النموذج السابع:

الإيمان بالله الرب القيوم

ومعنى القيوم: أي القائم بذاته، والقائم بشئون خلقه.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمستهدف من هذا الجانب العظيم من جوانب الإيمان أن نوقن بعقولنا، ونؤمن بقلوبنا أنه لا يوجد لدينا أو لدى أي مخلوق من مخلوقات الله شيء ذاتي أو قدرة ذاتية يمكنه من خلالها الاستغناء عن الله.. فلا حول ولا قوة إلا بالله...

معنى ذلك أننا لن ننطق إلا إذا أمدنا الله بالقدرة على النطق، ولن نضحك إلا إذا أمد - سبحانه - عضلات الفكين بالقدرة على الانقباض والانبساط، والمشاعر بالتوهج والفرح، والمخ بالفاعلية، وإلا لما ضحكنا: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) [النجم: ٤٣].

لن نرتوي إذا شربنا الماء إلا إذا أمد الله بفاعلية الإرواء، وأمدنا بالشعور بالرِّيِّ وإلا لشربنا وشربنا دون جدوى.

فنحن بدون الله لا نساوي شيئاً، وإلا فانظر إلى جهاز معقد كالحاسب الآلي مثلاً، والذي يزخر بالإمكانات والقدرات، ماذا يكون حاله عند انقطاع التيار عنه.. ما قيمته.. وما قيمة ما فيه من إمكانات؟ ولله المثل الأعلى فنحن أيضاً لا قيمة لنا إذا انقطع عنا المدد الإلهي.

تأمل الطفل الرضيع وسل نفسك: كم يحتاج إلى أمه - ظاهرياً - لكي تقوم

حياته؟! وماذا لو تركته؟! كيف سيأكل أو يشرب؟.. كيف سينظف نفسه؟!.. كيف سيرتدي ملابسه؟!.. ماذا يملك أن يفعل سوى البكاء؟

هذا هو حال الطفل الرضيع مع أمه وهو يحتاج إلى أمور محدودة، فكيف يكون حالنا مع الله عَزَّجَلَّ ونحن نحتاج إليه أكثر بملايين وملايين المرات من هذا الطفل إلى أمه؟!

أتعلم أن الله عَزَّجَلَّ يتولى شئوننا كلها.. يمد أعيننا بالقدرة على الإبصار في كل لحظة.. وكذلك الأذن بالقدرة على السمع، والعقل على التفكير، والقلب على ضخ الدم، والكلية على تنقيته و...

لو تخلَّى عَنَّا سبحانه طرفة عين لهلكنا، وَلِمْ لَا والدم سيتوقف عن الجريان، والمخ عن إصدار الأوامر، والرئتان عن الشهيق والزفير، و... إلخ.

ولسنا نحن فقط الذين نحتاج إلى الله عَزَّجَلَّ احتياجاً ماساً ومطلقاً ومستمرّاً، بل الكون كله كذلك، فكل المخلوقات تستمد قدرتها وفعاليتها على القيام بوظائفها من الله عَزَّجَلَّ لحظة بلحظة وأنا بآن.. فهو سبحانه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وهو سبحانه الذي يرفع السماوات بغير عمد، ويمسكها أن تقع على الأرض، ولو تركها طرفة عين أو أقل لسقطت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

أهمية الإيمان بالله الرب القيوم

هذا الجانب الإيمانى له أهمية قصوى في تربية الفرد على العبودية لله عَزَّجَلَّ، فمن خلاله يدرك أنه لا قيمة له إلا بالله، وهذا من شأنه أن يبعد عنه داء الإعجاب

بالنفس والفرح بها.

وله دور كبير في تحقيق الإخلاص لله عَزَّجَلَّ وعدم الشرك به، فعندما يدرك العبد مدى رعاية ربه له وقيامه على شئونه، وأن مفاتيح الخير كلها بيده، فإنه لن يستعين بغيره، ولن يتوجه إلا إليه: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

والإيمان الصادق بهذا الجانب له كذلك دور كبير في تعظيم قدر الله في النفس، فمن الطبيعي أننا كلما اكتشفنا مدى الرعاية والتعهد والإمداد المتوالي الذي يمدنا الله به، فإن هذا من شأنه أن يُعْظَم قدره داخلنا، ويزيد حبنا له لما يفعله من أجلنا، وتزداد كذلك خشيتنا من أن يحرمننا شيئاً من إمداداته، وتزداد استعانتنا به وتوكلنا عليه فيما نريد تحقيقه، ويقل الطمع بل وينقطع عما في أيدي الناس..

إن هذا الجانب الإيماني الخطير يجعلنا نعيش في حقيقة فقرنا الذاتي والمطلق لله عَزَّجَلَّ، ويُصَغَّر في أعيننا الأسباب والإمكانات التي تتوفر لدينا، لتصبح ستاراً نرى من خلالها عظيم فضل الله علينا، وأنها به سبحانه لا بأنفسنا.

كيفية الإيمان بالله الرب القيوم

لكي يصبح هذا الجانب الإيماني العظيم يقيناً راسخاً في العقل، وإيماناً عميقاً في القلب، لا بد من تكرار عرض صوره المختلفة على الفكر والعاطفة ليتمكن من إحداث التغيير المطلوب، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة وجود أعمال تُشَيِّد ببيان الإيمان بهذا الجانب العظيم.

نعم، هذا البنيان لا بد أن يُقام على قاعدة راسخة ثابتة، وهنا يأتي دور القرآن، الذي يقوم بتأسيس القاعدة الإيمانية لهذا الجانب العظيم وغيره من جوانب الإيمان.

ولقد أفاضت آيات القرآن في التحدث عنها، وآثارها وصورها المختلفة، وإليك -أخي القارئ- بعضاً من هذه الصور:

ربوبية وقيومية الخلق

فالله عَزَّجَلَّ يخلق جميع الموجودات من العدم، وهو سبحانه الذي يتولى نموها من طور إلى طور، فعلى سبيل المثال خلق الإنسان.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. أرايت أخي هذه الصورة العظيمة للربوبية والقيومية؟

هذا بالنسبة لخلق الإنسان والذي يبدأ من الطين، أما النبات فتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ربوبية وقيومية الإمداد

الله عَزَّجَلَّ يمد الكون كله بأسباب قيامه وحياته وإلا لكان عدماً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ

الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

ويمد الإنسان بكل ما يكفل له استمرار حياته.. يطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه.. اقرأ معي قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْلَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

تأمل لفظ ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ لتعلم مدى تعاهد الله لنا وقيوميته علينا.

وليس الأمر مقصوراً على هذا فحسب، فكل خلايانا وأجهزتنا وعضلاتنا تستمد قوتها منه سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

قيومية الحفظ

الله عَزَّوَجَلَّ قائم على الكون كله يحفظه على الحالة التي خلقه من أجلها، فالشمس خلقت لإمداد الناس بالضياء والدفء، ولمعرفة الأيام، وحركة الليل والنهار، والفصول الأربعة.

هذه الشمس تحتاج إلى أن تسير بانتظام في مدارها.. لا ينبغي لها أن تتوقف أو تتحرك أقرب أو أبعد مما هي عليه، فلو حدث هذا لهلك الناس والدواب وكل شيء.. من الذي يتولى حفظها في مدارها وتسييرها في كل يوم عبر ملايين السنين؟.. إنه الله الرب القيوم القدير: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ الَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

أَمَّا السَّمَاءُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ سَقْفًا يَحْفَظُ الْأَرْضَ، فقد خلقها سبحانه بلا أعمدة ترفعها، ويتولى بنفسه حفظها ورفعها منذ أن خلقها من ملايين السنين، ولو تركها طرفة عين لسقطت على الأرض: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

هذه الصورة من صور القيومية تنطبق على جميع الموجودات بما فيها الإنسان، فهو سبحانه يتولى حفظ القلب ليستمّر في ضخ الدم بسرعة معينة لو ازدادت أو نقصت لحدث اضطراب شديد في الجسم.. ويتولى حفظ جميع خلايا الجسم وإفرازاتها بنسب محددة: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

قيومية العلم والإحاطة بكل شيء

الله عَزَّجَلَّ يعلم كل شيء عن كل شيء... يحيط إحاطة كاملة ودائمة بجميع خلقه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

قيومية القدرة

ومع قيومية العلم تأتي قيومية القدرة المطلقة لله عَزَّجَلَّ والمحيطية بجميع خلقه، فقد كان سبحانه مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما واجه السحرة، وأوجس خيفة في نفسه لما رأى حبالهم وعصيهم تسعى.. فماذا فعل الله له في هذه اللحظات: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٨) ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

وعندما قرر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه الفرار من فرعون وبطشه وانطلقوا إلى البحر يعبرونه إذ بفرعون وجنوده يقتربون منهم: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى

إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴿فماذا حدث؟﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿[الشعراء: ٦١-٦٦].

فالله عَزَّجَلَّ يحيط بجميع خلقه، ويملك القدرة المطلقة على تنفيذ ما يريد في الوقت الذي يريد.

قيومية الهداية

لا طاقة لأحد من البشر بنفسه الأمانة دومًا بما يحقق شهواتها الظاهرة والخفية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ﴿[النور: ٢١].

ليس من الممكن لأحد من البشر أن يصلي أو يصوم أو ينفق أو يحج إلا بهداية وإعانة من الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ ﴿[سبأ: ٥٠].

لن يؤمن أحد ولن يهتدي أحد إلا بإعانة من الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿[المائدة: ١١١].

معنى ذلك أن كل صلاة نصليها فهي بقيومية الإعانة والهداية الإلهية، ولو تخلى عنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما صلينا ولا صمنا: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ ﴿[النساء: ٧٩].

قيومية العصمة

ومع تعهده سبحانه لعباده المؤمنين بإمدادهم وتحبيهم في العبادة فإنه سبحانه يعصمهم من الوقوع في المعاصي والزلات، فيصرف رغبتهم عنها، ويشغلهم

بأشياء أخرى... وإن لم يفعل سبحانه ذلك لهلكنا ولوقعنا في المعاصي بأنواعها المختلفة.. صغائرها وكبائرها.

تأمل معي قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام وهو يناجي ربه: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فسيدنا إبراهيم يخشى على نفسه وأبنائه من عبادة الأصنام.. لماذا؟ لأنه يوقن بأن الله عَزَّجَلَّ لو تركه لنفسه لعبد الأصنام.. أليس هو القائل لقومه: ﴿قَالَ اتَّخَذْتُمْ جُثُوجِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتُمْ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾؟ [الأنعام: ٨٠]... تأمل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ لتدرك أن أي معصية تحدث في الأرض ولا تفعلها فهي محض عصمة من الله لك.. ألم يقل يوسف الصديق لربه: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٣٣]؟ [يوسف: ٣٣].

قيومية التثبيت

الله عَزَّجَلَّ قائم على قلوبنا يشبثها على الإيمان ويربطها على ذلك، ولو تركها طرفة عين لزاغت إلى الهوى.. ألم يقل سبحانه لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧٦]؟ [الإسراء: ٧٤].

تأمل هذه الآية لتدرك معنى التثبيت، وأنه من عند الله وحده لا شريك له: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُرْمُوسَ فَدْرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠] [القصص: ١٠].

إذن فالثبات من عند الله؟ ولو تركنا لزاغت قلوبنا ولحدنا عن كل خير: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قيومية الولاية والحماية

الله عَزَّوَجَلَّ يتولى حفظ أوليائه من كل سوء: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي حفظ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهو سبحانه الذي حفظ محمداً ﷺ وحماه من المشركين عندما هموا بقتله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِفَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وهو الذي تولى حفظ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحمايته عندما ألقاه قومه في النار: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [٢٨] ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [٢٩] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [٧٠] [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

قيومية القرب والإجابة

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده جميعاً، إذا سألوه أجابهم، وإذا استنصروه نصرهم، وإذا استنقذوه أنقذهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإذا ما وسوس لنا الشيطان وحاول إغواءنا فما علينا إلا أن نهجر إلى الله ونستعيذ به: ﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٦] [فصلت: ٣٦].

وإذا حاق بنا خطر (ما) فما علينا إلا أن نستغيث بالله كما فعل يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

هذه القيومية تشمل جميع البشر: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكٍ وَجَرَيْنَ بِحَمِ يَرْبِجٍ طَیْبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٣) فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

قيومية العطاء والمنع

الله عز وجل يحب عباده، فما من مشيئة منه إلا ووراءها حكمة تصب في مصلحتهم.. فهو سبحانه قائم عليهم جميعاً، يعلم ما يصلح كلاً منهم؛ فيعطي هذا ويمنع هذا: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢) [الشورى: ١٢].

قيومية الجزاء

من صور قيومية الله على عباده أنه عليم بهم، قريب منهم، يعلم سرائرهم وعلاانيتهم وأفعالهم الحسنة والسيئة، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.. فيعفو عمن يشاء، ويُعاقب من يشاء.

يرانا إذا ما كذبنا أو اغتبننا أو أطلقنا أبصارنا فيما لا يحل لنا.

فإذا ما أراد عقابنا عاقبنا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا

عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿[البقرة: ٥٩].

فهو سبحانه سريع الحساب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٥٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٥٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٥٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٦٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين

الله عَزَّوَجَلَّ يتعاهد المؤمنين بألوان من التربية التي من شأنها -إن أحسنوا- التعامل معها- أن تضعهم في قالب العبودية له سبحانه، انظر -على سبيل المثال- ما حدث في غزوة حنين عندما قال بعض الصحابة: لن نهزم اليوم من قلة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي حادث الإفك تتجلى التربية الربانية لعباده: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٦، ١٧].

أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها

١- لكي يشكل هذا الجانب الإيماني المهم جزءاً أصيلاً في يقيننا وإيماننا وينعكس على سلوكنا بدوام الافتقار إلى الله، وصدق التوجه إليه، والتعلق التام به، وعدم رؤية النفس إلا بعين الاستصغار والانتقاص... علينا أن نعيش مع هذا الجانب في القرآن وأن نتبع صور القيومية ونتأملها ونجتهد في تفاعل المشاعر معها، وحبدالو خصصنا لهذا الموضوع المهم أكثر من ختمة حتى نشبع منه، ويهيمن مدلوله علينا.

٢- التفكير في الكون وما فيه من آثار تدل على تلك الحقيقة كشروق الشمس وغروبها، وتتابع الليل والنهار... وكذلك من خلال رؤية الأشياء بعد توقف المدد الإلهي عنها. وعلى سبيل المثال: جريان السفن في البحر يتم بقيومية التعاهد والرعاية والحفظ من الله عزَّجَلَّ، فإذا ما انقطع عنها هذا المدد توقفت في عرض البحر بلا حراك، بلا حول ولا قوة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

٣- التفكير في النفس وما في الإنسان من دلائل الربوبية والقيومية، وهذه الدلائل تظهر بوضوح عند حدوث منع أو نقص أو اضطراب في حياة الإنسان، ككثرة نبضات القلب، أو تلثم اللسان في الكلام، أو دخول رمش في العين، أو اختلاج عضلة من العضلات، أو الصداع، أو تغير المزاج، أو... إلخ.

٤- الإكثار من ذكر لا حول ولا قوة إلا بالله، وبخاصة بعد التفكير في صور القيومية في الكون والنفس، فمما لا شك فيه أن هذا الذكر يصفنا وصفاً دقيقاً، ويعبر عن الحقيقة التي ينبغي أن نعيش فيها... من هنا اشتدت الحاجة للإكثار منه لترسيخ مدلول الربوبية والقيومية في العقل والقلب، وتشيد بنيانها سريعاً.

٥- مناجاة الله والثناء عليه بذكر صور من ربوبيته وقيوميته علينا، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يرتجزون: «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا...»^(١).



(١) مسلم (٣/ ١٤٢٧ برقم: ١٨٠٢).

النموذج الثامن:

الحكم العدل

والمعنى المراد بالإيمان به من هذين الاسمين أن الله عَزَّجَلَّ يحكم بالعدل بين عباده، فيجزى المحسنين على إحسانهم، والمسيئين على إساءتهم، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وعندما يتمكن هذا المعنى من النفس فإن من شأنه أن يثمر خوفاً وورعاً وتقوى وحذراً من الله عَزَّجَلَّ؛ ومن ثمَّ عدم مخالفة أمره، والمبادرة إلى طاعته، والمسارة إلى التوبة والاستغفار كلما وقع العبد في ذنب من الذنوب.

كيف نؤمن بهذا الجانب؟!

ولكي يتمكن هذا الجانب الإيماني منا، لا بد من التعرف على صورته ومظاهره وتكرار عرضها على العقل فيزداد بها يقيناً، وعلى القلب فتشكل جزءاً أصيلاً من إيمانه.

وهنا يأتي دور القرآن الذي يفيض بتقرير قواعد هذا الجانب الإيماني، وعرض أشكال الجزاءات التي يجازي الله بها عباده، مع مزج ذلك كله بنماذج واقعية طُبقت عليها هذه الجزاءات على مدى التاريخ البشري.

البداية من العبد

ومن الملاحظ أن القرآن يؤكد دوماً أن ما يصيب العبد من خير أو شر فمن الله

عَزَّجَلَّ، ومع ذلك فإن للعبد دوراً مهماً في استدعاء هذا الخير أو الشر، بمعنى أن الصلاح والفساد، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، والتوفيق والخذلان، وضيق الصدر وانسراحه، وتيسير الأمور وتعسيرها... كل هذه الأحوال لا تصيب العبد إلا إذا بدرت منه بداية تستدعيها: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

فأي تغير في حالك، أو وحشة في صدرك، أو تعسير في أمورك، ليس إلا نتاج ما بذرت في وقت ما: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَتِهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالله عَزَّجَلَّ لا يظلم أحداً: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]. بل نحن الذين نظلم أنفسنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فبنو إسرائيل فضلهم الله على العالمين، ومكنهم في الأرض بما صبروا، وتحملوا ما فعله بهم فرعون: ﴿وَوَقَّعْتُ كَلِمَتِي لِرَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ولما لم يحافظوا على هذه النعمة، وتمادوا في الظلم والطغيان حصدوا الثمار المرة: ﴿فِيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

فلا محاباة لأحد: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

إنه قانون يطبق على الجميع: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ﴿١٤٤﴾.

فالأمر الإلهي سيصدر بعقابكم إن فعلتم ذلك، فلا محاباة لأحد، ولا كرامة لأحد إلا باستقامته وتقواه.

وفي سورة الأنعام، وبعد أن تتحدث الآيات عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام وذريته من الأنبياء، يأتي التذكير بأن استمرار الكرامة باستمرار الاستقامة: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

فمن يرد المعية والولاية فعلية بالاستقامة: ﴿ يَمْوَسِي لَا خَفَافِي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴿ [النمل: ١٠، ١١].

فالبداية من العبد: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِينًا ﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

ولقد ذكر القرآن هذا القانون بشقيه في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولقد طبق هذا القانون بوضوح شديد في حياة الصحابة، ولعل ما حدث في غزوة أحد أبلغ مثال على ذلك، ففي البداية كان النصر المبين حليفًا للمسلمين تطبيقًا للقاعدة المذكورة، ولما خالفت طائفة منهم أمر الرسول ﷺ، وتركوا أماكنهم من فوق جبل الرماة حدثت الانتكاسة وطبقت القاعدة أيضًا، ولقد أوضح

القرآن هذا الأمر جلياً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

والقرآن مليء بمئات الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة.

عاقبة الذنوب

ومع تقرير القرآن للقواعد التي يتم من خلالها محاسبة الناس ومجازاتهم في الدنيا والآخرة، فإنه كذلك يعرض صور وأشكال تلك الجزاءات، سواء أكانت للمحسنين أم للمسيئين: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ابْجَرَوْا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَنَاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فالمحسنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... يتمتعون بالسعادة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وبالحياة الطيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وبالكفاية والحماية من الله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦].

أما المسيئون فلقد أفاض القرآن في ذكر جزائهم على مستوى الأفراد أو الأمم، ليرتدعوا وليسارعوا بالفرار إلى الله وترك كل ما يخالف أمره: ﴿وَنُحِيقُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فعلى مستوى الأفراد نجد تحذير القرآن من الوقوع في المعاصي، مع عرضه لصور العقوبات المنتظرة لمن يرتكبها، وإليك أمثلة على ذلك:

تعسير الأمور: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٩﴾ فَسَيُسْرُهُ لِعُسْرِي ﴿١٠﴾﴾

[الليل: ٨-١٠].

والمعيشة الضنك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

والخذلان: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٢].

والتعرض للفتن: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

والتشيط: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

والعذاب الأليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

وتتصاعد العقوبات حتى تصل إلى مرحلة الاستدراج والإملاء: ﴿وَالَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

[الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عقوبات الأمم

هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الأمم فلقد ذكرت لنا آيات القرآن

أشكال العقوبات التي يمكن أن تصيب الأمة إذا ما حادت عن أمر الله.. منها:

سلب النعم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَذِّبًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَذِّبُوا مَا بِنَفْسِهِمْ

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

والجوع والخوف: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذْهَبَهَا اللَّهُ لِإِسَاءِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

ومنها: الخذلان والهزيمة: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وظهور الفساد وشيوعه بين الناس: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وتولي الظالمين مقاليد الأمور: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ومنها تخلي الله عن الأمة: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

نماذج قرآنية

ومع ذكر القرآن لصور وألوان الجزاءات للمحسنين والمسيئين على مستوى الأمم والأفراد، فإنه كذلك يعرض نماذج تطبيقية لهذه الجزاءات؛ ليعتبر منها الناس فيحتذوا حذو المحسنين في إحسانهم، ويجتنبوا ما فعله المسيئون.

ومن هذه النماذج: قارون الذي اغتر بماله وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فانتقم الله منه شر انتقام: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِإِخْوَتِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

وكذلك صاحب الجنتين الذي اغتر بما لديه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] فماذا حدث له؟ ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا أَتَفَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ﴾ [الكهف: ٤٢].

وكذلك أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِبَصَرِئِهَا مَصْبُوحِينَ ۖ﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

أما على مستوى الأمم فالأمثلة كثيرة، ولعل أبرزها ما حدث مع بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين بصبرهم، ثم غضبه عليهم وإنزال عقابه بهم لما عبدوا العجل وطغوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وكذلك ما حدث لسبأ عندما أعرضوا عن الشكر: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ۖ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها

١ - هذا الجانب المهم يحتاج إلى رسوخه في اليقين واستحواذه على جزء أساسي من الإيمان، ولم لا وهو من أهم دوافع الاستقامة على أمر الله... ولأن القرآن هو الوسيلة العظمى لبناء الإيمان واليقين، ولأنه كذلك قد أفاض في تقرير حقائق هذا الجانب الإيماني، فإن الواجب يحتم علينا أن نعيش طويلاً مع هذا المعنى في القرآن، ونتبعه من خلال وردنا اليومي، ولا بأس من تخصيص ختمة أو

أكثر لتأسيس هذه القاعدة اليقينية والإيمانية، ويفضل أن يكون ذلك من خلال تتبع المحاور السابقة والتي تقرر معنى «الحكم العدل»، وقاعدة «البداية من العبد»، وأنواع الجزاءات والنماذج التي طبقت عليها.

٢- التفكر اليومي في النقص الذي قد يحدث للواحد منّا، كتعسير الأمور أو وحشة الصدر أو تغيير أخلاق الناس عليه أو حرمان الرزق.... وربط ذلك بالذنوب، بمعنى أن نبحث عن مسببات تلك الأشياء، فالله عَزَّوَجَلَّ عدل لا يظلم أحداً، ولا يعاقب الناس بلا سبب.

٣- كثرة الاستغفار وبخاصة بعد جلسة التفكير السابقة.

٤- ربط آيات القرآن والتي تتحدث عن أسباب هزائم الأمم بواقع أمتنا، والبحث عن الأسباب التي جعلتنا في ذيل الأمم وتحت أقدام الكفار.

٥- سرعة الإنابة إلى الله إذا ما اقترفنا ذنباً من الذنوب، والتضرع إليه وطلب العفو والصفح.. لعله سبحانه يوقف تنفيذ العقوبة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومع التضرع والاستغفار تأتي الصدقة كوسيلة مهمة لاستجلاب رضا الله.. قال رسول الله ﷺ: «وَصَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ..»^(١).



(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦١ برقم: ٨٠١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٤٠٥ برقم: ٧٧٠٤).

النموذج التاسع:

الإيمان بالله القهار

ومعنى القهار أي أن الله عَزَّجَلَّ إرادته غالبه على جميع خلقه... فكل ما في الكون خاضع له، ومنقاد لإرادته ومشيئته سبحانه.

جميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك، ولا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته.. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإرادته الكونية غالبه.. لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.. فعال لما يريد.. غالب على أمره.

أهمية الإيمان بهذا الجانب

هذا الجانب الإيماني العظيم من شأنه، حين يرسخ في اليقين والقلب، أن يثمر انكساراً وتواضعاً لله عَزَّجَلَّ، واستسلاماً تاماً له، وإذعاناً لأقداره فيردد العبد: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْفُرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

كيفية بناء الإيمان واليقين بالله القهار

لكي يتم بناء الإيمان واليقين بهذا الجانب المهم، لا بد أولاً من التعرف على مظاهره في الكون والنفس، وتكرار عرض مدلولها على العقل والقلب.. وهذا ما يفعله القرآن باستفاضة في عرض مظاهر صفة القهر، مع عرضه كذلك لنماذج تطبيقية، حدثت على مر العصور السابقة.

وإليك -أخي القارئ- بعضاً من آثار هذه الصفة في الكون والنفس، وستلاحظ أن الجامع المشترك لهذه الآثار أن العبد يريد شيئاً والله يريد شيئاً آخر، فلا يحدث إلا ما شاء الله، ومن ذلك:

■ **الحمل ونوع المولود وعدد الأجنة، المرأة تريد الحمل سريعاً بعد الزواج، ولكن لا يحدث إلا في الوقت الذي يشاء الله، وتريد أن يكون المولود ذكراً -مثلاً- فيكون أنثى... تريد مولوداً واحداً فيأتيها توأمان:** ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَرَ ۖ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

■ **مدة وجود الجنين في الرحم.. وموعد الولادة.** هذه كلها أمور لا يستطيع أحد أن يعرفها أو يغيرها، يقول تعالى: ﴿وَنُقَرِّفُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]. أما الجنين فالأب -مثلاً- يتمنى أن يكون مشابهاً له، والأم تتمنى أن يشبهها هي.. ولا يحدث في النهاية إلا ما قدر الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

■ **النوم، متى ستنام؟ وهل ستستيقظ أم لا؟ وهل ستستيقظ معافى أم مريضاً؟ منشراح الصدر أم ضائقه؟**

تذهب للفراش وأنت متعب تريد النوم فلا يأتيك.. وفي أوقات أخرى يغلبك النوم في وقت لا تريده: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

■ **المرض، لا تريد المرض فيأتيك.. تريد الشفاء ولكنه لا يأتي إلا في الوقت الذي شاءه المولى:** ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء: ٨٠].

■ الرزق، الكل يريد الغنى، والواقع هو ما نشاهده من تباين الناس في أرزاقهم، فالأمر بيد الله وحده: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢﴾ [الشورى: ١٢].

■ المطر، متى سينزل؟ وأين؟ وبأي كمية؟ ومتى سيتوقف؟... كل ذلك بإرادة الله... نريد المطر، ونصلي صلاة الاستسقاء فلا يحدث شيء، بينما تغرق بلدان من كثرة الأمطار، فسبحان القهار العزيز في قضائه.

وكذلك السحاب، شكله... مكانه... مساحته... هل سيمطر أم لا؟ ﴿الزَّتْرَانِ اللَّهُ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَزَيَّ الْأُودُقَ يُخْرِجُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ٤٣﴾ [النور: ٤٣].

■ الفلاح يبذر البذر في الأرض... فأى البذر سينبت؟ ومتى سيكون الإنبات؟ وهل سينضج ثماراً أم لا؟ ومتى ستخرج الثمار؟ وما هي كميتها؟ وهل كلها ستكون بنفس الجودة؟ هذه الأمور كلها لا يملك الفلاح منها إلا انتظار فضل الله... فالأرض قد تُسقى بماء واحد.. والشجرة واحدة.. ومع ذلك نجد الثمار مختلفة في الطعم والحجم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانِ زَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ٤﴾ [الرعد: ٤].

■ الظواهر الكونية، الصواعق، البرق، الرعد، الرياح، البرد، الحر، السيول، الزلازل، البراكين، الجفاف؛ نحن لا نستطيع منع هذا كله؛ لأننا مقهورون بإرادة الله الغالبة: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ١٣﴾ [الرعد: ١٣].

■ أنظمة الحياة، لا نستطيع تغييرها فنحن مقهورون بها... ومن ذلك نظام الشمس، والقمر... والفصول الأربعة... تعاقب الليل والنهار، قوانين الجاذبية الأرضية، الاحتكاك... الاحتراق...

وكذلك أنظمة الجسم، نحن لا ندري ماذا يحدث داخلنا، ولا نستطيع وقف أي جهاز عن العمل فنحن مقهورون بها، ليس لنا اختيار فيها، ومثال ذلك: نظام التنفس، الدورة الدموية، الهضم، الامتصاص، المناعة، الإخراج، الجهاز العصبي، الهرمونات. وكذلك نظام الحياة فالطفل يصبح شاباً ثم شيخاً ثم يهرم ثم يموت.

هذا النظام لم يستطع أحد من البشر أن يغيره أو يوقفه أو يتمرد عليه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

■ الموت، متى... أين... كيف؟

فأغلب البشر - إن لم يكن كلهم - لا يريدون الموت، ولكنه يأتيهم: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ٦٠﴾ [الواقعة: ٦٠]، ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧].

■ النسيان والتذكر: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ٦﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

نماذج تطبيقية من القرآن

■ حمل السيدة سارة، زوجة إبراهيم عليه السلام لإسحاق وقد كانت عقيماً وعجوزاً: ﴿قَالَتْ يَوْنَيْلَيَّ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ٧٢﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

■ إنجاب زوجة زكريا ليحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

■ إنجاب مريم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دون أن يمسه بشر: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧].

■ نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحرق بالنار رغم إلقائه فيها: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

■ ما حدث في الهجرة، أراد المشركون منع الرسول ﷺ، وأراد الله له الهجرة: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْرُقْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنا فَانزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

■ ما حدث في بدر، المسلمون كانوا يريدون العير، والله يريد النفير والقتال لينزل النصر على المؤمنين ويمحق الكافرين: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الأنفال: ٧].

■ علم فرعون أنه سوف يُبعث رسول إلى بني إسرائيل يخلصهم من بطشه، فأراد التخلص منه، فكان يذبح منهم جيلاً ويترك جيلاً ليعلمه... ولأن إرادة الله غالبية نجا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الذبح، بل وتربى في بيت فرعون وعلى نفقته الخاصة:

﴿فَأَلْقَتْهُمُ الْعَالُ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَازٍ﴾ [القصص: ٨].

■ حَرَّمَ الله عَزَّجَلَّ المراضع على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعود إلى أمه كما وعدها ربها، فأمره سبحانه نافذ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

ضابط لا بد منه

من الواضح أن آثار صفات العزة والقهر الإلهي للعباد تدور حول الأمور التي ليس للعبد فيها اختيار ولا يحاسبه الله عليها كشكله، وطوله، وجنسه، ورزقه.. أما الأمور الاختيارية التي سيحاسبه عليها فإن الله لا يجبر أحداً على معصيته وإلا لانتفت حرية الاختيار التي خص الله بها بني آدم... نعم قد يعاقب الله عبداً بحرمان من طاعة، ولكن هذا العقاب يكون نتيجة أفعال ارتكبتها العبد بمحض إرادته، كما تم بيان ذلك في نموذج الحكم العدل، فالله عَزَّجَلَّ لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

ولعل ما يؤكد هذا المعنى هو التعرف على الله الودود الذي يحب عباده ويريد لهم الخير، ويحرص على هداهم جميعاً، هذه المعرفة عندما تستقر في ذهن الإنسان فإن من شأنها أن تطرد أي خاطرة حول قهر الله لعباده وجبرهم على فعل المعاصي. والذي يؤكد ذلك هو التعرف على الله الحكيم - كما سيأتي بيانه - فهذا من شأنه أن يسكب في النفس السكينة والطمأنينة بأن الله عَزَّجَلَّ له حكمة وراء كل مشيئة يشاؤها.. هذه الحكمة تحمل في طياتها الرحمة والخير للبشر وإن لم تبد في الظاهر.

أمثلة لأعمال نستصحبها

١ - علينا أن نتبع الآيات التي نتحدث عن هذا الجانب الإيماني المهم سواء أكانت تقرر قاعدته، أم تُعرّف بآثاره، أم تعرض نماذج تطبيقية له، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة تجاوب الفكر والعاطفة مع تلك الآيات حتى تُصبح يقيناً راسخاً في العقل، وحتى تشكل جزءاً من إيمان القلب، وحذاً لو خصصنا ختمة أو أكثر لهذا الموضوع، فكثره تكرار آياته على العقل والوجدان من شأنها أن تُسرّع بتشييد بنيانه اليقيني الإيماني؛ ومن ثمَّ ظهور ثماره العظيمة.

٢ - التفكير في الكون والنفس، والبحث عن آثار هذا الجانب وربطها بآيات القرآن ما أمكن.

٣ - التفكير في أحداث الحياة وما تحمل من آثار لصفة القهر، كالنوم والنسيان والأرق والمرض وتغيّر المزاج.

٤ - الالتزام بدعاء النوم: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ...»^(١).

٥ - الاجتهاد في تقديم المشيئة قبل التحدث عن أي شيء نريد عمله في المستقبل.

٦ - الإكثار من استخارة الله وتوسيع دائرتها لتشمل كل ما نريد القيام به.. قدر المستطاع.



(١) رواه البخاري (٦٨/٨) برقم: (٦٣١١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٢/٤) برقم: (٢٧١٠).

النموذج العاشر:

الإيمان بالله الرقيب القريب

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده، يحيط بهم جميعًا.. لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا في قاع البحر، ولا تحت سفح الجبال.. السر عنده علانية، والغيب عنده شهادة.

أهمية الإيمان بالله الرقيب القريب

عندما يستقر في يقين العبد قرب الله، وإحاطته به، ورؤيته له، ورقابته الدائمة عليه؛ فإن هذا من شأنه أن يدفعه إلى الحياء منه؛ ومن ثمَّ الاستقامة على أمره، وتحري الصدق في أموره كلها، ويؤدي كذلك إلى شعوره بالأمان والطمأنينة وهو يستشعر هذا القرب: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن ذلك أيضًا أن يُسرِّي عن العبد ما يراه ويسمعه عن ظلم الظالمين، وبطش المتجبرين، فربه ليس بغافل عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومن أجل ثمرات الإيمان بهذا الجانب: عدم شعور العبد بالوحشة إذا ما كان بمفرده، بل على العكس فهو ينتظر تلك اللحظات ليخلو بربه ويأنس به ويبث إليه أشواقه ويسأله حوائجه.

ومن ثمراته كذلك: توطيد العلاقة بين العبد وبين ربه واقترابه منه حتى يصل إلى مرحلة الإحسان، فيعبده ويخاطبه كأنه يراه.

كيفية الإيمان بهذا الجانب

لو سئل أيُّ منا عن مفهومه لهذا الجانب الإيمانى فسينبى فى شرح معناه، وقد يسرد الآيات والأحداث التى تقرره، ولكن إذا ما نظرت إلى واقعنا فإنه سىصعب عليك رؤية ثمرات الإيمان بهذا الجانب، من استقامة وصدق وشعور بالأمان وحب الخلوة بالله، وهذا يدل على عدم رسوخ مدلوله فى يقيننا، وعدم استحواذه على جزء كبير من إيماننا.

من هنا اشتدت الحاجة إلى طريقة نعلم بها حقيقة هذا الجانب فى عقولنا وقلوبنا.. وهنا يأتي دور القرآن العظيم الذى أفاضت آياته فى الحديث عنه وعرض آثاره فى حياة الناس.

وإليك -أخي القارئ- بعضاً من صور تناول القرآن له:

● قرب الله من عباده

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده جميعاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۗ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦]. ومن أجل مظاهر هذا القرب أنه يسمع دعاءهم ونداءهم ولو كان همساً أو فى السر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٦].

● الإحاطة التامة بخلقه ومعيته لهم

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من خلقه ومحيط بهم: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧].

• رقابة الله لخلقه

قاله عَزَّجَلَّ رقيب على عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]. شهيد على أعمالهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۝٢﴾ [يونس: ٦١] فلا يمكن لمخلوق أن يختبئ في مكان لا يراه الله فيه: ﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾ [لقمان: ١٦].

يرانا ونحن نضحك، ونحن نأكل، ونحن نصلي: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٣٧﴾ [الزمر: ٣٧]. الذي يربك حين تقوم ﴿وَقَلْبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝٣٨﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩].

• عالم الغيب والشهادة

قاله عَزَّجَلَّ يعلم كل شيء: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

يعلم ما في أنفسنا وما تخفي صدورنا: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

فباطننا أمامه كظاهرننا، وسرُّنا كعلانيتنا، فلا يوجد شيء يمكن أن نخفيه عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

• السميع

«فقد سَمِعَ سَمْعُهُ الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، لا تختلف عليه، ولا تشبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها.. لا يشغله سمع

عن سمع، ولا تغلظه كثرة المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين وذوي الحاجات»^(١).

﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

● إحصاؤه لأعمال عباده

ومع علم الله وإحاطته بعباده ورقابته لهم فإنه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحْصِي عَلَيْهِم أعمالهم: ﴿ أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦]، فيحاسبهم عليها: ﴿ وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]؛ فيجزى المحسنين على إحسانهم، والمسيئين على إساءتهم، أو يعفو عنهم، وذلك في الدنيا والآخرة.

تطبيقات عملية

ومع استفادة القرآن في الحديث عن هذا الجانب الإيماني المهم، فقد استفاد كذلك في عرض نماذج عملية على مدى تاريخ البشرية تدل على علم الله وإحاطته بجميع خلقه.

تأمل قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَهَائِهِمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]. وتأمل ما قالته السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾»^(٢).

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ١٢٦)، مكتبة المؤيد - الرياض.

(٢) مسند أحمد (٤٠/٢٢٨ برقم: ٢٤١٩٥) واللفظ له، والبخاري باختلاف يسير (٩/١١٧).

أما قربه من عباده وسماعه نداءهم له فالنماذج التي تدل عليه كثيرة منها ما حدث مع زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرْتَضِي يَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٣-٦].

فكانت الإجابة: ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسْحَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

● والقرآن كذلك يحدثنا عن إحاطة الله بجميع خلقه من خلال عرضه لعدة نماذج عملية؛ كإخباره تعالى لموسى عليه السلام بما يخطط له فرعون وجنوده: ﴿فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ۝٣٢ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ۝٣٣﴾ [الدخان: ٢٣، ٢٤].

● أما المعية فتتجلى أثناء سرد قصة موسى عليه السلام مع السحرة: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتِهِمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَاهَا فَاسْتَعْصَمَ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ لَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

● ومن النماذج التي تدل على علمه التام بالسر والعلن إخباره سبحانه لرسوله ﷺ بأحوال المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وكذلك إخباره ﷺ بما كان من بعض أزواجه: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحریم: ٣].

● أما سرعة الحساب فتتمثل في هذا النموذج: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها

١- من الأفضل أن نقوم بتتبع الآيات التي نتحدث عن هذا الجانب الإيماني ونماذجه العملية، إذا ما أردنا أن يرسخ مدلوله في يقيننا ومشاعرنا، مع الأخذ في الاعتبار أهمية تجاوب المشاعر مع الآيات ليزداد الإيمان وتتحسن العلاقة مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فتظهر ثمار المراقبة اليانعات، وحبذا لو خصصنا ختمة أو أكثر لذلك.

٢- التَعَوُّد على مناجاة الله، والحديث معه في كل ما يخص أمورنا، ولنا في مناجاة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه أبلى مثال على ذلك، فهو يحدثه وكأنه يراه... وهذا ما نريده.. أن نتحدث مع الله ونستفيض معه في الحديث كما نصح المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ الحواريين بقوله: «كَلِّمُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَكَلِّمُوا النَّاسَ قَلِيلًا، قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ اللَّهَ كَثِيرًا؟ قَالَ: اخْلُوا بِذِكْرِهِ، اخْلُوا بِدُعَائِهِ، اخْلُوا بِمُنَاجَاتِهِ»^(١).

٣- ومع مناجاة الله علينا أن نتعود سؤاله كل شيء.. جاء في الأثر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لربه: «يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَتُعَرِّضُ لِي الْحَاجَّةَ مِنَ الدُّنْيَا. فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ. قَالَ: سَلْنِي حَتَّىٰ مِلْحَ طَعَامِكَ وَعَلْفَ حِمَارِكَ»^(٢).

ورأى عروة بن الزبير رجلاً يصلي صلاة خفيفة سريعة فدعاه وقال له: أما

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٤)، مختصر قيام الليل (١/ ٦٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩).

كَانَتْ لَكَ إِلَى رَبِّكَ حَاجَةٌ؟ إِنِّي لَأَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فِي صَلَاتِي حَتَّى أَسْأَلَهُ الْمِلْحَ^(١).

٤- التَّعَوُّدُ عَلَى أَنْ نَسْتَدْعِيَ اللَّهَ مَا نُرِيدُ حِفْظَهُ بِخَاصَّةِ الدِّينِ، وَكَذَلِكَ الْعَافِيَةِ وَالْأَمْوَالِ وَمَا نَمْلِكُ.. لَنَا وَلِأَهْلِنَا..

٥- لِيَكُنْ شِعَارُنَا: اللَّهُ مَعِيَ.. اللَّهُ يَرَانِي.. اللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيَّ.



(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٠) والزهد لأحمد بن حنبل (١/ ٣٠١ برقم: ٢١٧٤).

النموذج الحادي عشر:

الإيمان بالله القدير

الله عَزَّجَلَّ ذو قدرة مطلقة.. لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. قدرة لا حدود لها، ولا يمكن تخيُّل حجمها أو أبعادها.. كل شيء عليه هين: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨].

هذا المعنى العظيم عندما يستقر في يقيننا، ويتشابك مع مشاعرنا فإن من شأنه أن يعظم قدر الله عندنا، ويزيدنا ثقة مع ثقتنا فيه سبحانه، وفي عوده، ويصغر في أعيننا ما عند الناس من مظاهر للقدرة الزائفة، وبخاصة أعداؤنا الذين يظنون أنهم قد ملكوا الأرض بما عندهم من إمكانات لا تساوي في قدرة الله وقوته جناح بعوضة.

ومن فوائد الإيمان العميق بهذا الجانب أيضاً: اليقين بأنه لا يمكن لأحد أن يفر من الله، ومن مشيئته، وأنه ليس أمامه إلا الفرار إلى الله والاستسلام والخضوع والاستكانة إليه، فيردد: لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

من مظاهر القدرة الإلهية

ولكي يتم غرس المعنى داخلنا لا بد من تكرار عرضه بصور مختلفة على عقولنا وقلوبنا، وهذا ما يفعله القرآن باستفاضة في الحديث عن صفة القدرة الإلهية ومظاهرها، وكثرة عرضه لنماذج تطبيقية حدثت عبر القرون الماضية.

وإليك -أخي القارئ- بعضاً من مظاهر القدرة الإلهية:

قدرة الخلق والإبداع

فلننظر إلى السماء وحجمها، والجبال وعظمتها، والبحار واتساعها، والنبات بأنواعه وألوانه الكثيرة، والأسماك، والطيور، والدواب،.. كل هذه المخلوقات خلقها الله عَزَّوَجَلَّ من العدم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٤٥].

قدرة مطلقة تشهد عليها هذه المخلوقات، وينبغي أن تشهد عليها أنت أيها الإنسان، الله الذي خلقك من الماء، وصورك فأحسن تصويرك: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤]، ﴿وَمَنْ أَيْتَاهُ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

قدرة الحفظ والإمداد

فمع قدرة الخلق المطلقة تأتي قدرة الحفظ.. حفظ هذا الخلق، فالسماء خلقها الله عَزَّوَجَلَّ بلا عمد وتولى سبحانه حفظها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

حفظ حركة الشمس المنتظمة وتقلب الليل والنهار: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٧].

ومع الحفظ يأتي الإمداد.. إمداد جميع خلقه بالرزق وبأسباب الحياة: ﴿وَمَا

مِن دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ [هود: ٦]. وإذا ما أردت مثلاً حياً على القدرة المطلقة للخلق والحفظ والإمداد، فانظر إلى بستان من البساتين، وما فيه من ألوان الزهور والنباتات، كلها تخرج من قطعة أرض واحدة، وتُسقى بماء واحد، ولكن النتائج مختلف، فهذه شجرة كبيرة ذات جذع ضخم، وتلك شجيرة صغيرة تحمل ثماراً جميلة اللون والطعم، وأخرى منبسطة على الأرض لا ساق لها: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

قدرة إنفاذ المشيئة

فالله عَزَّجَلَّ القدير المقتدر إذا أراد شيئاً فعله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

يقدر المقادير ولا يعجزه إنفاذها، فكل شيء عليه هين: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

قدرة مطلقة: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

القدرة الخارقة للسنن

الله عَزَّجَلَّ هو الذي وضع السنن الحاكمة للحياة، وهو وحده القادر على تبديلها بقدرته المطلقة، فهو سبحانه جعل نهاية حياة الإنسان في الدنيا، فلا يمكنه العودة إليها مرة أخرى، لكنه سبحانه هو وحده الذي يقدر على ذلك حين يشاء:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَئْهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْنُتُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

قدرة الجزاء

فمن صور القدرة الإلهية أنه سبحانه يقدر على مجازاة المحسنين على إحسانهم والمسيئين على إساءتهم: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَيْنَ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ومن صور القدرة على الجزاء: قدرته سبحانه على معاقبة أعدائه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَاعْزَنُوا أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١، ٤٢]. وكذلك نصرة أوليائه: ﴿فَإِذَا نَذَهَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ آلِيًّا وَعَدَتُهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

تأمل ما حدث في غزوة الأحزاب ونصرة الله لعباده المؤمنين دون أسباب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

القدرة المحيطة بكل شيء

ومع هذه القدرة المطلقة فإنها كذلك محيطة بجميع الخلق: ﴿إِنَّمَا مَا تَكُونُوا بِأَيْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨]، فلا يمكن لأحد أن يفر من الله بأي حال من الأحوال.

فمن ذا الذي يستطيع أن يفر من قضائه وقدره؟! ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٧٧﴾ [الأحزاب: ١٧].
ومن يستطيع أن يفر من الموت؟ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وهل يستطيع أحد أن يفر من الحساب؟ ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْفِرَّةَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ﴿١٢﴾ [القيامة: ١٠-١٢].

نماذج تطبيقية

ومع هذه الصور المختلفة للقدرة الإلهية التي استفاض القرآن في ذكرها، نجد أنه كذلك قد عرض لنا نماذج تطبيقية كثيرة لهذه الصور التي حدثت على مر الأزمان، ومن ذلك:

- ما حدث لزكريا عليه السلام من إنجاب زوجته ليحيى عليه السلام مع كونها عاقراً، ومع كبر سنه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمَرْتُ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ﴿[مريم: ٨، ٩].

- خلق عيسى عليه السلام من أم فقط دون وجود أب: ﴿قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ﴿[مريم: ٢٠، ٢١].

- ومن ذلك أيضاً: نوم الفتية في الكهف ثلاثمائة عام وقدرته سبحانه على حفظهم أحياء وإيقاظهم في الوقت الذي شاءه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاءَ لَوْا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ

كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴿[الكهف: ١٨، ١٩].

• ومن النماذج التي يعرضها القرآن لقدرة الإحاطة بكل شيء، وأنه لا يمكن لأحد أن يفر من الله قوله تعالى: ﴿وَقُرْئُوتَ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْنُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠].

• ومن ذلك أيضًا: أن صالحًا عليه السلام وعد قومه ثلاثة أيام جزاء تكذيبهم وقتلهم الناقة، فهل استطاعوا أن يفرّوا من العذاب أو ينجوا منه؟ مع أن المدة كانت كافية لذلك: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَنْفَرُوا فِيهَا﴾ [هود: ٦٥-٦٨].

• ومن النماذج العجيبة للقدرة الإلهية الخارقة للعادة ما حدث للنبي عزيز عليه السلام:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِئْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِئْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرْنِي إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرْنِي إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرْنِي إِلَى الْوَطَاءِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ومما يثبت هذه القدرة الإلهية أنه سبحانه وتعالى تعهد بحفظ القرآن من التحريف والتبديل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

ورغم محاولات الكثيرين من أصحاب الفرق الضالة لتحريف القرآن، وإضافة أو حذف ولو حرفاً واحداً منه إلا أن محاولاتهم قد باءت بالفشل -بفضل الله- لتؤكد أن وعد الله حق وأن قدرته لا حدود لها.

أعمال يُفضل القيام بها

١- يحتل هذا الجانب في القرآن مساحة كبيرة، سواء أكان ذلك من خلال تقرير حقيقة القدرة الإلهية، أم التعريف بآثارها في الكون والنفس، أم عرض نماذج تطبيقية لها، فعلينا ونحن نقرأ القرآن أن نعيش مع هذا الجانب بمحاوره الثلاثة، وأن نجتهد في استشارة مشاعرنا معها، وأن نكرر كل آية تؤثر فينا، حتى يتحول مدلولها إلى يقين راسخ في عقولنا، ويشكل جزءاً أصيلاً من إيماننا، مما يثمر ثقة في الله ويقيناً بوعده، ويزيدنا تعلقاً به، وزهداً في الناس.

٢- ممارسة عبادة التفكير: فمظاهر القدرة الإلهية بادية في كل شيء.. في حفظ السماء من السقوط على الأرض.. في تعاقب الليل والنهار.. في كل مخلوق جديد.

فعلينا أن نتفكر في آيات الله الماثلة في كل مكان ونستدل من خلالها على قدرة المقتدر سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنسَانِ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٣- التفكير في أحداث الحياة المتغيرة والتي تحمل في طياتها دلائل القدرة الإلهية.. كتغير الطقس المفاجئ، وهبوب الرياح ثم سكونها، وكالأعاصير

والفيضانات المدمرة، وكالرعد والبرق والصواعق، وكالبراكين والزلازل، ولعل الزلزال الذي ضرب جنوب شرق آسيا وراح ضحيته عشرات الآلاف^(١) دليل على هذه القدرة غير المتناهية التي تضاءلت وتلاشت بجوارها كل قدرات البشر الوهمية الزائفة.

ورأينا أيضاً كيف وقف العالم كله عاجزاً أمام فيروس كورونا، وأصبحت البلاد وكأنها مدن أشباح بعد أن كانت صاحبة وتعج بالناس، فظهرت قدرة الله غير المتناهية، وظهر ضعف الإنسان بصورة سافرة!

٤- من الأعمال المهمة التي سيكون -بمشيئة الله- لها دور كبير في بناء الإيمان في هذا الجانب استصحاب ذكر «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

فهذا الذكر بمثابة شعار للقدرة الإلهية.. علينا أن نكثر من ترديده، على أن نسبقه بالتفكير في مظاهر القدرة ليكون الذكر معبراً عن الحالة القلبية؛ فينطلق منها، ويعود أثره بعد ذلك إليها بمزيد من الإيمان.

ومن أهم الأوقات التي ينبغي أن نردد فيها هذا الذكر: قبل شروق الشمس وقبل غروبها، ففي هذين الوقتين تتجلى بوضوح مظاهر القدرة الإلهية في تعاقب الليل والنهار، فعلى أن نحصر على ذلك ما استطعنا.



(١) كان ذلك في ٢٦ ديسمبر (٢٠٠٤) م - ١٤ ذي القعدة (١٤٢٥) هـ.

النموذج الثاني عشر:

الإيمان بالله الحكيم

من الأمور التي ينبغي الإيمان بها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحكيم، فما من مشيئة يشاؤها سبحانه إلا ووراءها حكمة، وما من مخلوق من مخلوقاته إلا وله حكمة في خلقه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلق شيئاً عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿[المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

أهمية الإيمان بالله الحكيم

مما لا شك فيه أنه إذا ما تم غرس قواعد الإيمان واليقين بهذا الجانب في القلب والعقل، فإن ذلك من شأنه أن يثمر رضا وطمأنينة وسكينة، وأن يجعل الواحد منا يتعامل مع الأقدار باختلافها وتنوعها بهدوء وتسليم، ولم لا وقد أيقن أن لربه حكمة وراء كل مشيئة يشاؤها له، وإن لم تظهر تلك الحكمة فهو يعلم أن قدرته البشرية تعجز عن استشعار كل حِكم الحكيم بما في ذلك الأقدار المؤلمة وما تخبئه في طياتها من حِكم، وأن هذه الحكم تصب في مصلحته.

نعم، قد لا تبدو أمام العبد الحكمة من وراء الأحداث التي تمر به ولكن ثقته بربه، وسابق معرفته به، وتمكن هذا الجانب الإيماني من قلبه وعقله... كل هذا سيدفعه للتسليم بقضاء الله وقدره، بل والرضا به مهما كان هذا القدر مؤلماً.

من هنا كان من الضروري التعرف على الله الحكيم من خلال القرآن، وصور

ومظاهر حكمته في الكون والنفس؛ لتستقر هذه العقيدة في اليقين، وتشكل جزءاً من الإيمان.

معنى الحكمة

تحدث القرآن كثيراً عن هذا الجانب الإيماني من خلال تقريره ووصفه لمعنى الحكمة، ومن خلال عرضه لصورها وسرد النماذج التطبيقية لها على مر العصور والأزمان.

ويتجلى تقرير معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [حكمة: ٤] ﴿بَلِغَةُ﴾ [القمر: ٤، ٥].

من مظاهر الحكمة

مظاهر الحكمة بادية في كل شيء خلقه الله عز وجل، وبادية كذلك في آياته ومشيبته التي يشاؤها لعباده، ومن تلك المظاهر:

الحكمة في المخلوقات

فكل ما في هذا الكون قد خلقه الله تعالى بالحق: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وكل مخلوق له هدف وغاية من خلقه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

فالإنسان خُلِقَ لعبادة الله عَزَّجَلَّ بالغيب، والأرض هي المكان الذي يمارس فيه هذه العبادة.. فما الأرض إلا قاعة امتحان يؤدي فيها البشر اختبار العبودية، وكل شيء على هذه الأرض مخلوق للإنسان.. وظيفته تسهيل مهمته التي خُلِقَ من أجلها ومساعدته على النجاح في أدائها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فمن المخلوقات ما خلقه الله عَزَّجَلَّ ليحفظ حياة الإنسان مثل الطعام والشراب، ومنها ما يُسهِّل عليه الحياة، فلا ينشغل بأمور أخرى ويترك العبادة كالدواب التي تحمله من مكان لآخر.. هذه الدواب لو لم تُخلق لصارت الحياة شاقة لا تُحتمل.. تأمل قوله تعالى؛ لنذكر بعض الحكم من خلقها: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٥ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٦ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِمَّ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا نَفْسٌ إِتَتْ رَبَّكُمْ لَرَأَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٧ [النحل: ٥ - ٧].

ومن أجل الحكم في خلق المخلوقات التي نراها حولنا في كل مكان: الاستدلال بها على معرفة الله عَزَّجَلَّ، فهو سبحانه قد طالبنا بعبادته بالغيب، وهذه العبادة لن تتم بالصورة المرجوة إلا من خلال معرفتنا به سبحانه حق المعرفة، فأكثر الناس عبودية لله: أعلمهم به.

والله عَزَّجَلَّ لا تدركه الأبصار، ولا يمكن لأحد من البشر أن يراه في الدنيا ليتعرف إليه.. فكيف لنا إذن أن نعرفه؟!

أخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ لَهُ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ، وقد أودع أسرارها ومظاهرها في مخلوقاته، فكل مخلوق يحمل شهادة تعريف بالله عَزَّجَلَّ علينا أن نقرأها لنعرف

ربنا من خلالها، فينعكس ذلك على عبادتنا له: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُثُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فالتفكر في مخلوقات الله قاد هؤلاء الصالحين إلى إدراك الحكمة من خلقها:
﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا﴾؛ مما انعكس على عبوديتهم لربهم: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ﴾، فما خلق الله شيئاً في هذا الكون من باب العبث - حاشاه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا﴾ [ص: ٢٧]، بل لحكم عظيمة.

الحكمة من التشريع

ومن مظاهر الحكمة العظيمة.. الشريعة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾
[الأنبياء: ١٠٧]، فما من تشريع يشرعه الله لعباده إلا لحكمة تصب في مصلحتهم.
نعم، قد يكون ظاهر هذا التشريع فيه شدة على البعض، لكنه فيه رحمة
للمجموع، كالقصاص في القتل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٩] فتطبيق حكم القصاص على القليل يحيي الكثير والكثير.
وكالقتال في سبيل الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾
[البقرة: ٢١٦].

وكغض البصر: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾
[النور: ٣٠].

الحكمة من الآيات الكونية

الله عَزَّجَلَّ يرسل لنا رسائله من خلال الآيات الكونية، والحكمة العظيمة من هذه الرسائل هي التعريف به سبحانه، والانتباه لحقيقة وجودنا في الدنيا، وأنا سنموت في أي لحظة ثم نلقاه: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فالبرق آية تخويف بالله وجبروته، وكذلك فهو آية طمع في رحمته لما يؤدي إليه في الغالب من نزول المطر: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا يُمْرِكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرؤم: ٢٤].

الحكمة من الابتلاء

الله عَزَّجَلَّ يتبلي عباده بالنقص في أموالهم، أو صحتهم، أو في تسلط أعدائهم عليهم، أو غير ذلك من صور الابتلاء.

هذا الابتلاء قد يحمل في ظاهره الشر لكنه له حكم عظيمة تصب في مصلحة هؤلاء العباد، فالابتلاء بضيق الرزق له حكمة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

أرأيت أن ضيق ذات اليد رحمة من الله عَزَّجَلَّ بعباده؟

أما العذاب والنقص الذي يُبتلى به الأفراد أو الأمم ففيه حكم عظيمة، وذلك في كونه رسالة تذكير بالله، وحثًا للجميع على العودة إليه: ﴿وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

فظهور الفساد في الأرض عقاب من الله لعباده العاصين، ولكنه عقاب يحمل

في طياته رحمة بهم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الحكمة من أحداث الحياة

لله عَزَّجَلَّ حَكَمٌ من وراء كل حدث يحدث للعبد في يومه، فما أحداث الحياة إلا آيات تعريف بالله عَزَّجَلَّ وقدره العظيم، وبالنفس وقدرها الصغير، وبال دنیا وقدرها الحقيق، وبالأخرة وقدرها المهور: ﴿وَيُزِيكُمُ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وعندما يحسن الواحد منا قراءة تلك الآيات والرسائل فإن هذا من شأنه أن يعظم قدر الله عنده، ويصغر قدر نفسه، ومن شأنه كذلك أن يجعله يتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود.. ومن نماذج هذه الرسائل حدوث أشياء لا يريدھا الإنسان، ولو كان يعلم بإمكان حدوثها لأخذ حيطته: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فالإنسان علمه محدود.. جاهل بالغيب، وهذا من شأنه - إذا أحسن التعامل مع أحداث الحياة التي تؤكد تلك الحقيقة - أن يؤدي به إلى استصغار قدر نفسه والتعلق الدائم بربه.

ومن هذه الرسائل رؤية الأشياء المخيفة كالحيوانات المفترسة، ورؤية الفئران والحشرات المقرزة، فهذه رسالة تذكرنا بحقيقة ضعفنا؛ ومن ثم مدى احتياجنا لحماية الله لنا.

ومنها رسائل التذكير بمدى عجزنا عن إنفاذ إرادتنا، ويمثلها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وصور ذلك كثيرة، فأنت

تريد النوم فيصيبك الأرق، وتريد الاستيقاظ في وقت ما فلا تستيقظ.. تريد أن تلد زوجتك ذكراً فتلد أنثى...

ومنها رسائل التذكير بمدى فقرنا إلى الله عزَّجَل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَآيَتِكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]. وأشكال هذه الرسائل كثيرة ويمثلها المرض بجميع صوره، ونقص الإمدادات كانقطاع الماء، وتعطيل الدابة،...

ومنها رسائل التذكير بحقارة الدنيا وأنها دار فراق: كالموت المفاجئ للبعض، وتغير أحوال الناس من الصحة للمرض، ومن العز للذل، ومن الغنى للفقر.

نماذج قرآنية

ومع إفاضة القرآن في بيان صور الحكمة، فقد أفاض كذلك في بيان نماذج تطبيقية لها حدثت على مر الأزمان والعصور.

من ذلك ما حدث لأهل الكهف، فقد ظلوا نائمين ثلاثمائة عام.. لماذا هذا الوقت تحديداً.. ولماذا استيقظوا فترة قليلة ثم ماتوا بعدها.. كل ذلك لحكم عظيمة: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

لقد بُعثوا في زمان ينكر بعض الناس فيه البعث، ولإثبات تلك القضية أحياهم الله ثم أماتهم بعد انتهاء مهمتهم ورؤيتهم تمكين الدين بأم أعينهم.

ومن النماذج كذلك ما حدث لفرعون وقومه من ابتلاءات بيّن لنا القرآن الحكمة من ورائها بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَام مع الخضر أبلغ مثال لمظاهر الحكمة في المشيئة، والتي تبدو من الناحية الظاهرية مؤلمة أو غير منطقية: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ وَأَمَّا الْفُلُ فكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: ٧٩-٨١].

وتجلت مظاهر الحكمة العظيمة في غزوة بدر، فالصحابا خرجوا يريدون العير، والله يريد أن ينتصر الحق، ويزهق الباطل.. يريد من المسلمين أن يقاتلوا الكفار، والمسلمون خائفون لأنهم لم يخرجوا من أجل ذلك، ولم يستعدوا له: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال: ٥-٧].

أعمال يفضل القيام بها وبأمثالها

١- تتبّع مظاهر الحكمة والنماذج التطبيقية لها من خلال وردنا القرآني، وحبذا لو تم تخصيص ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، مع العمل الدائم على تجاوب الفكر مع المشاعر، حتى يرسخ مدلوله في العقل والقلب وينعكس على السلوك.

٢- التفكّر في مخلوقات الله والاجتهاد في البحث عن الحكمة من خلقها: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ ۝﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فننظر إلى السماء ونتفكر فيها وفي حكمة خلقها بهذا الاتساع، وننظر إلى

السحاب وإلى الجبال وإلى كل شيء.. تأمل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

أرأيت الحكمة من خلق الورود والأزهار وغيرها من النباتات والتي من شأنها أن تثير البهجة في النفس، لينطلق الإنسان بعد رؤيتها فرحاً سعيداً؛ فيؤدي العبادة بروح جديدة؟!... وهكذا.

٣- التفكير في خلق الإنسان وما فيه من حكم عظيمة.. ومن ذلك التفكير في العينين ولماذا لم تكن الرؤية بعين واحدة.. والتفكير في مكانها لو كان أعلى من ذلك أو أسفل من ذلك.. والتفكير في مكان الأذنين وتركيبهما... والفم، ولم هو في هذا المكان، والشفيتين ولماذا لا يوجد بهما عظام.. واليدين ووضع الأصابع والمفاصل فيهما... وهكذا.

٤- التفكير في أحداث الحياة وحسن قراءة الرسائل الإلهية التي يرسلها الله لعباده، والاجتهاد في معرفة الحكمة من ورائها، وهذا يشمل كل ما يمر بالإنسان من أحداث.. فهناك رسائل منع ونقص في صحة أو مال أو رزق. وهناك رسائل عطاء وتوفيق.

وهناك رسائل عزة وقهر كالمرض والأرق والنسيان.

وهناك رسائل تعريف بحجم الإنسان، وأنه ضعيف وفقير ومحتاج إلى الله في كل طرفة عين.

وَالسَّعِيدُ مَنْ أَحْسَنَ قَرَاءَتَهَا وَتَعَرَّفَ مِنْ وَرَائِهَا عَلَى اللَّهِ الْحَكِيمِ.

النموذج الثالث عشر:

الإيمان بالله العزيز

العزة هي الرفعة، والقدرة والقهر والمنعة، والعزيز هو القادر، القاهر، المنيع الذي لا يُغالب، والله عَزَّجَلَّ عزيز عزة مطلقة ودائمة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، ولا يملك أحد من البشر شيئاً من العزة، فالكل سواء: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٥﴾ [يونس: ٦٥].

فلا قوة إلا قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا ملك إلا ملكه، ولا علم إلا علمه، ولا مشيئة إلا مشيئته، ولا رفعة إلا به سبحانه، فالبشر جميعاً يستون أمام الله عَزَّجَلَّ في ذلهم وعدم وجود شيء ذاتي يرتفعون به، وفي الوقت نفسه فإن قيمتهم عنده يحددها إيمانهم وتقواهم: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فالعلو عند الله مرتبط بالإيمان، فإذا نقص نقصت قيمة العبد عند ربه وظل يهوي شيئاً فشيئاً: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ [طه: ٨١].

أهمية الإيمان بالله العزيز

الإيمان العميق واليقين الراسخ بهذا الجانب المهم له دور كبير في تخلص العبد من كل صور العزة الزائفة التي يدعيها، مثل العزة بالمال أو بالجاه أو بالمنصب أو بالثياب أو بالسبق أو باللغة أو بالنسب أو الأصدقاء أو بالقوة أو بالجمال أو... ومن فوائده كذلك أنها تطرحه ذليلاً منكسراً على باب مولاه يلتمس منه العزة،

فهو بدونه لا قيمة له.. لا مال.. لا قوة.. لا قدرة.. لا علم.. لا أي شيء.

ومن ثماره أيضًا أنها تُبعد عن العبد التفاخر والمباهاة والتكبر على الآخرين، ولم لا ومن خلال عمق الإيمان بالله العزيز يرى العبد حجمه الحقيقي، ويرى في الوقت نفسه حقيقة ما حباه الله من مواهب وأسباب، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَوْ شَاءَ أَنْ يرفعها عنه لرفعها وقتما شاء.

ومن الثمار المرجوة كذلك: عدم التذلل للمخلوقين، وكيف يذل نفسه لعبد ذليل مثله.. إنه عز المعرفة بالله العزيز الذي يملك وحده كل شيء، والأمر كله بيده، وله مقاليد السماوات والأرض.

ومنها العزة على الكافرين، ومبعث هذه العزة هو الانتساب إلى الله عَزَّجَلَّ، وليس مبعثها شيئًا ذاتيًا، فالمؤمن يرى الكافر على حقيقته عبدًا ذليلاً مهانًا عند الله بكفره.. يراه فيردد: «والمرء من غير دين لا يساوي في الكون شيئًا».

من صور العزة الإلهية

والصور الإلهية للعزة تشمل كل الجوانب التي بها تكون الرفعة، ومن ذلك:

عزة الملك

فالله عَزَّجَلَّ يملك الكون كله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[يس: ٨٣].

ولا أحد غيره يملك أي شيء مهما كان حجمه ولو مثقال ذرة: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

حتى الملائكة والرسل والأنبياء.. لا يملكون شيئاً في هذا الكون: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فكل ما في أيدينا وما حولنا ملك لله عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

أما ما عندنا من أشياء نمتلكها فما هي إلا هبات ومنح من الله عَزَّجَلَّ على سبيل الإعارة وليست على سبيل الملك الحقيقي، بمعنى أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ مالِهَا الحقيقي، وستؤول إليه لا محالة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]. وهو صاحب هذا الملك المطلق، له وحده الحق في المنع والعطاء: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وله وحده الحق في التشريع: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وله وحده الحق في أن يعاقب أو يغفر: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

عزة القوة

فالله عَزَّجَلَّ يملك القوة جميعاً: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولا توجد قوة في هذا الكون غير قوته، وكل قوة نراها في مخلوق فصاحبها لا شك يستمدّها من الله عَزَّجَلَّ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.. تأمل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۖ

[الروم: ٥٤].

فالآية تؤكد لنا حقيقة القوة التي نراها في أبداننا حال الشباب، وأن الذي يعيرنا إياها هو الله، وأنه سبحانه يأخذها منا عند التقدم في السن.

فالمغرور بقوته من البشر هو الذي يظن أن لديه قوة ذاتية، وينخدع فيما حباه الله من أسباب القوة ويظن أنها ملك له.

عزة العلم

فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ عَنْده العلم جميعًا: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

فما من علم يتعلمه الإنسان إلا من الله مصدره: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ ﴾ [البقرة: ٣٢]، ولا يقدر أحد أن يعرف شيئاً من علم الله إلا بالله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

عزة القدرة

فالقُدرة كلها لله، وما من قدرة نراها لمخلوق من المخلوقات إلا ويستمدّها من الله عَزَّجَلَّ.. فقدرة البذرة على الإنبات، والنار على الإحراق، والماء على الإرواء، والشمس على الإضاءة والدفء، وكذلك قدرة اللسان على الكلام، والعين على الرؤية، واليد على البطش، والأذن على السمع و... كل ذلك مستمد من الله عَزَّجَلَّ لحظة بلحظة وَأَنَّا بَانَ: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۚ ﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤] فلا قدرة لمخلوق إلا بالله.

عزة القضاء

الله عَزَّجَلَّ عزيز في قضائه لا يملك أحد سواه إنفاذ مشيئته.. فلا مشيئة إلا به:
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].. فكل شيء يحدث في الكون
فيعلم الله وإذنه ومشيئته: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

عزة الرحمة

لله عَزَّجَلَّ خزائن الرحمة كلها، يرحم الله بها من يشاء من عباده، ويضعها في
قلب من يشاء من عباده: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإذا
منحها لعبد فلا يمكن لأحد أن يسلبها منه، وإن منعها عن عبد فلا يمكن لأحد أن
يستجلبها له: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

عزة النصر

فالنصر من عند الله لا من عند البشر: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، ومهما كانت الأسباب التي يتفوق بها طرف على آخر،
فهي في النهاية لا تستجلب النصر، فلقد جعل سبحانه النصر من عنده وحده: ﴿قَدْ
كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ
مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْأَعْيُنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾
[آل عمران: ١٣].

فلا يوجد طريق يؤدي إلى النصر إلا ويبدأ من عند الله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا
غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

عزة النور والهداية

فالله عَزَّجَلَّ هو المصدر الوحيد لنور السماوات والأرض وما فيهن: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] والكون كله ظلمة بدون نوره سبحانه، فلا نور إلا نوره، وما من نور على وجه الأرض إلا ويُستمد من نوره سبحانه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

ومن أهم صور النور: نور البصيرة والهداية إلى الحق، فالله عَزَّجَلَّ هو الذي ينير القلوب ويشرح الصدور للإسلام: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولا يمكن لأحد أن يقوم بهذه المهمة سواه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولو اجتمع البشر كلهم على رجل واحد وأرادوا هدايته فإنه لن يهتدي إلا إذا شاء الله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

عزة الحكمة

ومع هذه الصور المختلفة للعزة تأتي صورة عزة الحكمة لتتوج هذه الصور جميعاً، فالله عَزَّجَلَّ الذي يملك كل شيء، وعنده مفاتيح وخزائن العزة كلها، فإنه سبحانه حكيم في عزته.. فقهره لعباده بحكمة، وبسط الرزق وقبضه لحكمة، وهدايته أو إضلاله بحكمة، ومغفرته أو عقابه بحكمة: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

نماذج قرآنية

أفاض القرآن في ذكر نماذج تطبيقية لصور العزة المختلفة، وأفاض كذلك في بيان نماذج للمغترين الذين توهّموا أن لهم عزة ذاتية وكيف كانت نهايتهم.

فمن النماذج التطبيقية لعزة القوة: المثال الذي تحدى الله به الناس جميعاً ليبين لهم أنه لا قوة إلا قوته: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَعْمُوا لَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

أما عزة القدرة فقد ظهرت جلية في سلب خاصية الإحراق من النار، وعدم إمدادها بالقدرة على ذلك حين حاول الكفار حرق إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْنَا نَبَارُكُوفِي بِرَدَا وَسَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكذلك عدم إمداد السكين بالقدرة على القطع عندما أراد إبراهيم عليه السلام ذبح ابنه إسماعيل تنفيذاً لأمر الله.

ومن النماذج التي تبين عزة القضاء، ما حدث لمحمد ﷺ عند الهجرة، فقد أراد المشركون قتله، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد نجاته وهجرته، فكان ما أراد: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن نماذج عزة الرحمة نجاة الرسل كنوح وصالح وهود عليهم السلام، وإصابتهم بالرحمة الإلهية دون غيرهم من الذين حق عليهم العذاب المبين: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا

يَجِيئَنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ [هود: ٥٨].

وتتجلى عزة الحكمة في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: ٤٤].

أما عزة الهداية فتتمثل في امرأة فرعون التي آمنت رغم وجودها في أجواء مفعمة بالكفر والضلال، وتتمثل كذلك في عدم إيمان زوجتي نوح ولوط عليهما السلام.

ومن نماذج عزة النصر ما حدث في بدر من نزول الملائكة وقتالهم مع المؤمنين، ومن نزول المطر، وغير ذلك من التأييدات الغيبية، ومع ذلك لم تكن هذه الأشياء هي سبب النصر الحقيقي، فالنصر كان من عند الله وحده لا شريك له، كما أخبرنا سبحانه:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

ومن نماذج عزة القوة ما حدث في غزوة الأحزاب عندما ألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فأصبحوا خائفين هلعين؛ مما جعلهم يفرون من أماكنهم ويعودون حيث أتوا: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥].

نماذج للعزة الزائفة

ومع عرض القرآن لنماذج وصور العزة الإلهية فإنه يعرض كذلك نماذج للمغتربين الذين انخدعوا بما لديهم من أسباب، وظنوا أنهم يملكونها أو يرتفعون بها على غيرهم، ومن هذه النماذج: نموذج الاغترار والعزة الزائفة بالمال ويتمثل في قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

ونموذج الاغترار بالأولاد والضياع ويمثله صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ نَجْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦) [الكهف: ٣٤-٣٦].

ومن نماذج الاغترار بالقوة.. قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وضوح الرؤية

ولكي يستقر مفهوم العزة الإلهية في الأذهان فإن القرآن يكشف كذلك للإنسان عن حقيقته، وأنه لا يمتلك عزة ذاتية فأصله هو الطين والتراب.. لا من ذهب ولا فضة، وحتى الذهب والفضة إن كانا هما أصله فلن يضيفا له شيئاً من العزة من دون مولاه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٧) ﴿ثُمَّ جَعَلْهُ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٨) [السجدة: ٧، ٨].

وأنه جاهل لا يعلم ما سيحدث له بعد طرفة عين، وفقير لا يملك مثقال ذرة، وأنه ضعيف وعاجز لا يستطيع إنفاذ إرادته.

فمن كان ذا أصل حقير؛ ومن كان جاهلاً بالعواقب، فقيراً ضعيفاً، عاجزاً، فليس له إلا التذلل لمن يملك كل شيء، وعنده مفاتيح الغيب، وخزائن العزة.

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها

١ - تتبّع مظاهر العزة الإلهية في القرآن مع الاجتهاد في تجاوب الفكر مع العاطفة حتى يستقر مدلولها في اليقين، ويتشابك هذا المدلول مع المشاعر ويشكل جزءاً من إيمان القلب، وحبذا لو تم تخصيص ختمة أو أكثر لذلك.

٢ - «هل لك عزة ذاتية؟» يمكننا الإجابة عن هذا السؤال من خلال القرآن، واكتشاف حقيقتنا من خلال تلك الإجابة.

٣ - القيام بأعمال تعبر عن حقيقتنا، وأن الواحد منا لا يفضل غيره بلباسه أو جاهه أو ماله، فالكل سواء، والكل أذلاء للعزیز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والكل سواء في عدم امتلاك شيء ذاتي يمكنهم الاعتزاز والرفعة به على الغير.

ولكي ترسخ هذه الحقيقة أكثر وأكثر فإن من المناسب القيام بأعمال المتواضعين، من الجلوس مع المساكين، والسعي في قضاء حوائجهم، وعدم طلب التميز على أحد، وكذلك خدمة الآخرين، وعدم المباهاة أو التفاخر بشيء... وغير ذلك من صور التواضع.

٤ - المبالغة في التذلل لله عَزَّجَلَّ، فاستجلاب ما عند العزيز يأتي بحسن التذلل له: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ومن أجل صور التذلل: السجود؛ لذلك فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

والمقصد أن نبالغ في إظهار التدلل لله عَزَّجَلَّ، وأنه لا قيمة لنا إلا به.

٥ - طلب الأشياء التي نريدها من الناس بعزة؛ لأنهم مثلنا لا يملكون من الأمر شيئاً، فالعزة كلها لله، والله أعز من خلقه جميعاً، والله أعز ممن نخاف ونحذر..

٦ - الإكثار من ذكر «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» تعبيراً عن كوننا لا نساوي شيئاً بدون الله عَزَّجَلَّ.



النموذج الرابع عشر:

الإيمان بالله الغني الحميد

الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه الغني الحميد، فهو سبحانه قائم بذاته.. يُطْعِم ولا يُطْعَم، يُجِير ولا يُجَارُ عليه.. لا يضرُّه كفر الكافرين: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

ولا تنفعه طاعة الطائعين: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

لا ينتفع بشيء من جهاد المجاهدين: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

ولا إنفاق المنفقين: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

فالمستفيد من الطاعة هو صاحبها، والمتضرر من المعصية هو مرتكبها: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

معنى ذلك أن سعيك لنفسك.. إحسانك لنفسك.. صلاحك لمصلحتك.

هذا المعنى العظيم عندما يصبح إيماناً عميقاً راسخاً في القلب، فإن من شأنه أن يجعل العبد دومًا مستصغرًا عمله، شاعرًا بأنه هو المستفيد الأول منه؛ ومن ثم لا يمن به على أحد، ولا يظن أن له به منزلة عند ربه.

الكون العابد

ومما يؤكد هذا المدلول التعرف على الله الحميد، فالله عَزَّوَجَلَّ يسبحه ويحمده من في السماوات والأرض ليلاً ونهاراً: ﴿وَلَا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فإذا ما تعرّف العبد على عبودية الكون لله، فإن هذا من شأنه أن يجعله دومًا مستصغرًا أعماله مهما بلغت، وتسبيحه مهما كثر، ولم لا وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

تخيل أنك تريد زيارة أحد المرضى فذهبت إلى بائع الحلوى، واشترت علبة ذات سعر مرتفع وأخذتها وانطلقت بها إلى صديقك المريض، وفي الطريق حدثتك نفسك بأنه عندما يرى هذه العلبة القيّمة فسيسر بك، وسترتفع منزلتك عنده، و... وعندما وصلت إليه والزهو يمتلكك إذا بك تُفاجأ بعشرات اللعب الأكثر قيمة من علبتك.. ماذا سيكون شعورك وقتها؟! هل سيستمر زهوك وإعجابك بما اشتريت؟! الأمر ذاته ينبغي أن يحدث لنا عندما نتعرف على الله الحميد.. فنحن قد نصلي رُكُوعًا بالليل ونظن حينها أننا فعلنا شيئاً عظيماً نستحق عليه المنزلة عند الله.. هذا الشعور بالزهو والعُجب سيذهب ويتلاشى إذا ما عشنا مع معنى الغني الحميد في القرآن، وتعرفنا على مدى استغناء الله عنا، وعلى صور من عبودية الكون له: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ الْقُدُوسُ الْعَرْشُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١].

فلنعمل إذن على تمكين هذا المعنى الإيمانى من عقولنا وقلوبنا لنزداد استصغاراً لأنفسنا ولأعمالنا التي نقوم بها.

وأهم مصدر للتعرف على هذا المعنى هو القرآن الذي أفاض في الحديث عن معنى (الله الغني) وصور غناه عن عباده، وكذلك معنى الحميد ومظاهر عبودية الكون له سبحانه، وحبذا لو خصصنا لذلك ختمة من ختماتنا، واجتهدنا في تفاعل القلب مع الفكر مع آياتها.



النموذج الخامس عشر:

عفو الله أو النار

والمستهدف من الإيمان بهذا الجانب هو بناء اليقين في عقولنا، والإيمان في قلوبنا بأنه لن تنجيننا أعمالنا مهما كان حجمها، فإما عفو الله أو النار.

هذا الجانب له ارتباط وثيق بجانب الإيمان بالله الوهاب، باعتبار أن معرفة حق الله علينا (حق النعم)، وتأكيدنا من عدم قدرتنا على الوفاء به سيؤدي إلى استشعارنا بأنه لا أمل أمامنا إلا عفو الله عَزَّوَجَلَّ، وأن أعمالنا مهما بلغت فلن تكون سبباً في نجاتنا.

لن تنجيننا أعمالنا

لله عَزَّوَجَلَّ حقان على العبد: حق طاعة أوامره، وحق شكر نعمه... فكل نعمة وهبها الله للعبد لها مقابل ألا وهو الشكر: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل: ٧٨].

ومن أجل صور الشكر: العبادة: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾ (٤٢) [آل عمران: ٤٢]، ما هو شكر هذه النعمة العظيمة؟ ﴿يَمْرِيْمُ أَفَنُفِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ (٤٣) [آل عمران: ٤٣].

ولو قام الواحد منا بإحصاء نعم ربه لتأكد أنه لن يستطيع الوفاء بحقوقها ولو ظل

ساجداً طيلة حياته، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو طالبه بحقه يوم القيامة لهلك: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَأْذِنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨). فمن يُسأل عن النعيم، وعما وهبه الله من نعم، ويُطالب بأداء حقها لدخل النار لا محالة؛ لأن أعماله كلها لا توفي ولن توفي حق نعمة من نعم الله عليه، يستوي في ذلك جميع الخلق بمن فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ» فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)؟ [الانشقاق: ٨]، فقال: «لَيْسَ ذَاكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ» (١).

معنى هذا أنه لا أمل لنا إلا في عفوهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالسعي والاجتهاد في الطاعة ليس الهدف منه مقايضته بالجنة، بل هو للتعرض لعفو الله ورحمته، فالعمل الصالح مهما بلغ فلن يوفي ولو جزءاً يسيراً من حق الله علينا، وعندما يجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجنة جزاء لعباده الطائعين فهذا فضل منه سبحانه، وليس حقاً لهم لكي يطالبوا به.. تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) [الدخان: ٤٠-٤٢] فالنجاة من النار رحمة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ، أما الجنة فهي منحة منه سبحانه يختص بها من يشاء من عباده.

(١) البخاري (٣٢/١) برقم: (١٠٣)، ومسلم (٤/٢٢٠٤) برقم: (٢٨٧٦).

لماذا الاستغفار بعد الطاعة؟!

ومما لا شك فيه أن الذي يتعرض لهذا الفضل الإلهي هو ذلك الشخص الذي يُقبل على الله وهو ناظر في حقه سبحانه عليه، مستصغراً عمله، منكسراً بين يديه، خائفاً من عدم قبول ما قدمه إليه من أعمال مهما عظمت، أكثرًا من الاستغفار بعد أدائه للطاعة، فهو يوقن أنها لا تليق بعظمة الله ولا بحقه عليه، كما دلنا الله على ذلك بعد الإفاضة من عرفات: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فليست العبرة بأداء العمل الصالح فقط، ولكن برضا الله عنه كذلك، كما قال العبد الصالح: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩].

وفي القرآن عشرات المواضع التي تذكرنا بحق الله علينا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، وتذكرنا كذلك بأن سعينا ينبغي أن يكون لنيل المغفرة أولاً، ثم الجنة بعد ذلك تكرماً وتفضلاً من المولى - سبحانه - لا استحقاقاً لنا مهما كانت أعمالنا.

يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

فالمغفرة أولاً، فإن تَمَّتْ كان الأجر الكبير، فضلاً من الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

توصيات عملية

- ١- تتبع الآيات التي تتحدث عن نعم الله علينا واستشعار حقها من الشكر.
- ٢- تتبع الآيات التي تقرر أن سعيها ينبغي أن يكون لنيل مغفرة الله ورحمته أولاً، ثم الجنة بعد ذلك فضلاً من الله لا استحقاقاً لها.
- ٣- الإكثار من الاستغفار وبخاصة بعد أداء الطاعات: ﴿وَالْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].
- ٤- الإكثار من ذكر الله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.



النموذج السادس عشر:

الإيمان بالرسل

ويشمل هذا الجانب والركن المهم من أركان الإيمان:

- أن الرسل قد أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ ليبلغوا الناس رسائله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ [الروم: ٤٧].
- وأن هذه الرسائل تحمل في طياتها تذكيرًا بالعهد الأول ونصائح من الله لعباده، وتبشيرًا لهم بالجنة - إن هم أطاعوه - وإنذارًا بالنار - إن هم عصوه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].
- هؤلاء الرسل بشر مثلنا من الله عليهم بتبليغ الرسالة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].
- وهم مثلنا لا يملكون من الأمر شيئًا، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لأبيه: ﴿لَا تَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].
- ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

مثال العبودية

ومما يشمله هذا الجانب الإيماني كذلك التعرف على مدى عبودية الرسل لربهم كنماذج ومثل يُحتذى بها.. هذه العبودية التي قد امتلأت بها قلوبهم وظهرت آثارها على أفعالهم وأقوالهم، ونقلها إلينا القرآن في كثير من آياته، ومن ذلك:

- تقواهم لله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].
- وإخلاصهم له سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].
- ويعرض القرآن نماذج تبين مدى انكسار الرسل لربهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمْقِنُوا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو مَسَاحِقَ الْأُفْحَامِ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].
- وأنهم كانوا يردون كل أمر له سبحانه، فقد كانوا يتعاملون مع أحداث الحياة ويرون من ورائها ربًّا حكيماً، رءوفاً، غفوراً، واسع الفضل.. تأمل معي ما قاله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبويه وهو يخبرهما بما حدث له ومدى فضل ربه عليه وذكر إخراج له من السجن، ومع أن ظاهر القصة يشير إلى أن الملك هو الذي أخرج به وأجلسه في هذا المنصب لكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتبر ما فعله الملك كله ما هو إلا ستار لقدرة الله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].
- ومن مظاهر عبودية الرسل سرعة إنابتهم لربهم: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ إِنَّمَا فُتِنَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤].

• وكذلك سرعة شكرهم له سبحانه كلما أفاض عليهم بالنعم: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

• ومن مظاهر عبودية الرسل حرصهم الشديد على هداية قومهم: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: ٨٤].

• ومن مظاهر عبودية الرسل كذلك تحملهم التكذيب والأذى في سبيل الله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

• ومنها استصغارهم لأنفسهم واستشعارهم عظيم فضل الله عليهم، وأنهم به سبحانه لا بأنفسهم، ولو تخلى عنهم لهلكوا وضلوا.. تأمل ما قاله شعيب لقومه: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلِكِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وما قاله إبراهيم عليه السلام وهو يناجي ربه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

أما تذللهم لله عزَّجَلَّ فيظهر في دعائهم والذي عرض لنا القرآن عدة نماذج له، منها ما جاء على لسان نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وكذلك ما دعا به خليل الله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِنُ وَمَا نَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴿[إبراهيم: ٣٨-٤١].

الإيمان بالرسول وواجبنا نحوه

ومما يرتبط بهذا الجانب، وأفاض القرآن في ذكره أيضاً: وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وأن طاعته من طاعة الله بل إنها من دلائل حب العبد له سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

كيف ربي الله رسوله ﷺ على كمال العبودية؟

من الموضوعات العظيمة التي تحدث عنها القرآن كثيراً تربية الله لرسوله الحبيب ﷺ على كمال العبودية، ولم لا وهو خير رسله، وأحب خلقه إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦) [الأحزاب: ٥٦].

وهو الأسوة الحسنة والنموذج الكامل الذي ينبغي أن يحتذي به من أراد أن يعبد الله عبادة صحيحة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ (٢١) [الأحزاب: ٢١].

والآيات التي تتحدث عن هذا الموضوع كثيرة، وتتناول جوانب عديدة للعبودية نذكر منها:

• تربيته ﷺ على الإخلاص التام لله عزَّجَل: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢) لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

• وتحذيره الشديد من الشرك: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦) [الزمر: ٦٥، ٦٦] ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا﴾ (٢٢) [الإسراء: ٢٢].

• وأنه بشر مثل بقية الناس لكنه يوحى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

• وأنه مثل البشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

• لا يملك من الأمر شيئًا، ولا يعلم الغيب: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

• وأنه بالله لا بنفسه: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا﴾ (٨٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧) [الإسراء: ٨٦، ٨٧].

• وتحذيره من الدنيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣) [طه: ١٣١].

مواقف تربوية

ويقص علينا القرآن مواقف تربوية ربي فيها الله عزَّجَلَّ رسوله الكريم ﷺ على

كمال العبودية.

ومن ذلك عندما سألته المشركون عن فتية الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فأخبرهم أنه سيجيبهم في الغد ولم يقدم المشيئة، فتأخر عليه الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزل بآيات من سورة الكهف وفيها الدرس التربوي المهم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

● وعندما قتل المشركون في أحد العديد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مثل: حمزة ومصعب وعبد الله بن جحش دعا الرسول ﷺ على المشركين بأسمائهم فنزل القرآن: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ﴾ [١٢٨] آل عمران: ١٢٨.

● ومن أشد المواقف التربوية ما حكته سورة عبس:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۖ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ۖ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۖ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۖ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۖ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ (١١)﴾ [عبس: ١-١١].

● ومن المواقف التربوية كذلك: التسرية عنه ﷺ لِمَا كَانَ يَلَاقِيهِ مِنْ أَدَى قَوْمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ۖ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ﴾ [يونس: ٦٥].

● ومن المواقف التربوية: تعليمه ﷺ صور شكر ربه على نعمه العظيمة، ومن ذلك ما جاء في سورة النصر والتي نزلت بعد فتح مكة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر: ١-٣].

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها

١- تتبع الآيات التي تتحدث عن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وكيف تعاملوا مع قومهم، ومدى تمثل مظاهر العبودية فيهم، وكيف رباهم الله عَزَّوَجَلَّ عليها، وعلينا أن نجتهد في مزج الفكر بالعاطفة عند قراءتنا لتلك الآيات لنتمكن هذه المعاني من يقيننا وتشكل جزءاً من إيماننا.

٢- تتبع الآيات القرآنية التي يخاطب فيها الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ، والاجتهاد في التفاعل معها والتعرف على كيفية تربية الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله الحبيب ومكانته عنده وواجبنا نحوه ﷺ.

٣- دراسة كتاب من كتب السيرة النبوية نقرب من خلاله أكثر وأكثر من الرسول ﷺ.

٤- الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.



النموذج السابع عشر:

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان.. ويشمل هذا الجانب: حقيقتهم.. وظائفهم.. عبوديتهم لله عَزَّجَلَّ.. واجبنا نحوهم.

حقيقة الملائكة

الملائكة من مخلوقات الله.. خلقهم من نور، لا تنطبق عليهم قوانين البشر، فهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَسُكُونٌ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩].

وهم كسائر الخلق، عبيد لله عَزَّجَلَّ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

بل إن خوفهم من الله شديد: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وهم في عبادة دائمة لله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

مثلهم مثل سائر الخلق ليس لهم من الأمر شيء: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ۝٢٦﴾ [النجم: ٢٦].

علاقتهم بالبشر

أخبرنا القرآن أن الملائكة قد علمت منزلة البشر عند الله عَزَّجَلَّ، وأنه سبحانه

قد كَرَّمَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمرهم بالسجود له فسجدوا، لذلك جعلوا جزءاً من عبادتهم التي يتقربون بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ الدعاء والاستغفار لمن في الأرض: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥﴾ [الشورى: ٥].

فكما أننا نصلي على الرسول ﷺ كقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ باعتبار أنه ﷺ أحب الخلق إليه.. فكذلك الملائكة تتقرب إليه سبحانه بالاستغفار للبشر، بخاصة المؤمنون منهم لعلمهم بمنزلتهم عند ربهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٩﴾ [غافر: ٧-٩].

وظائف الملائكة

والملائكة عباد مقربون لله عَزَّوَجَلَّ يقومون بتنفيذ أوامره في تدبير مملكته سبحانه: ﴿يُزِيلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ٢﴾ [النحل: ٢].

ورئيسهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو الذي يقوم بإبلاغ الوحي للرسول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٧﴾ [البقرة: ٩٧].

وهناك ملك الموت الذي ينفذ أوامر الله بنزع الروح لمن قَدَّرَ سبحانه له الموت: ﴿قُلْ بَنُوكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: ١١].

وهناك إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور.

وهناك حملة العرش: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمْنِينَ﴾ ﴿١٧﴾
[الحاقة: ١٧].

وهناك من يقوم بتسجيل أفعال العباد وأقوالهم: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨].

وهناك الحفظة الذين يقومون بحفظ البشر بأمر من الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١].

وهناك الملائكة السيّارة في الكون، والذين يتعاقبون بالليل والنهار يشهدون الصلاة وحلق الذكر، وهناك الملائكة الذين يحملون البشري من الله عز وجل لعباده الصالحين عند الموت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

والملائكة منهم حُرّاس للنار: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦﴾ [التحریم: ٦].

ومنهم من يقوم على نعيم المؤمنين في الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الزمر: ٧٣].

نماذج قرآنية

عرض القرآن نماذج تطبيقية لبعض الأدوار التي تقوم بها الملائكة.

فمنهم من ذهب لإبراهيم عليه السلام وزوجه ييشرونهما بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ويخبرون إبراهيم عليه السلام بما سيحل على قوم لوط من العذاب: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ ثَوِيٍّ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولىءُ بِي إِلَهُ آلِ عَبْدِ وَهْدَا بَعْلِي سَيْحًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

ومن النماذج القرآنية التي تعرض بعض أدوار الملائكة ما حدث في غزوة بدر ونزول الملائكة للقتال في صفوف المؤمنين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْصَانِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

أعمال يفضل القيام بها

١ - تتبع الآيات التي تتحدث عن الملائكة من ناحية كنههم وعبوديتهم لربهم ووظائفهم التي يقومون بها، وعلاقتهم ببني آدم، وحبذا لو أكثرنا من التأمل في هذه الآيات والاجتهاد في تفاعل الفكر والعاطفة معها.

٢ - استشعار قرب الملائكة ووجودها معنا وتسجيلها لأعمالنا، وحضورها لمجالس الذكر، وقراءة القرآن.. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى حسن الأدب معهم، وتأجيج الشعور بالتقوى لله عز وجل.

الخاتمة

أخي القارئ:

هذه نماذج لكيفية بناء الإيمان العميق من خلال القرآن، ولعلك توافقني على أننا لو أحسنَّا التعامل مع تلك النماذج وغيرها مما ستضيفه أنت إليها، فإن هذا -بمشيئة الله- سيكون له أثر عظيم على سلوكنا، وستتذوق من خلاله الفجوة القائمة بين العلم والعمل، والواجب والواقع، وستتذوق من خلاله طعم الإيمان، وحلاوة معرفة الله عَزَّجَلَّ، وتتعلم منه العلم النافع المقرب إليه سبحانه.

فماذا نريد أكثر من ذلك؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وأخيرًا، نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يكون لنا إمامًا في الدُّنيا، وأنيسًا في القبر، وشفيعًا يوم القيامة.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ



فهرسالموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول	
حقيقة الإيمان	
حقيقة الإيمان	١١
مفهوم الإيمان بالله	١٣
المشاعر بين الإيمان والهوى	١٣
أهمية الإيمان بالله	١٤
الإيمان وعورات النفس	١٦
الثمار المباركة	١٧
كيف يزاد الإيمان؟	١٩
الإيمان قول وعمل	٢٢
الإيمان أولاً	٢٤
أهمية التذكرة	٢٥
التذكير قبل التوجيه	٢٦
الفصل الثاني	
كيف نزيد بالطاعات إيماناً؟	
كيف نزيد بالطاعات إيماناً؟	٣١
مقياس زيادة الإيمان	٣١

الصفحة

الموضوع

- ٣٢..... أهمية الزيادة المستمرة للإيمان
- ٣٤..... إيقاظ الإيمان هو البداية
- ٣٦..... أركان الإيمان

الفصل الثالث

القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية

- ٤١..... القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية
- ٤٢..... طريقة القرآن في زيادة الإيمان
- ٤٦..... كيف نزداد إيماناً من خلال القرآن؟
- ٥٠..... أولاً: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح
- ٥١..... ثانياً: الانشغال بالقرآن
- ٥٢..... ثالثاً: التهيئة الذهنية
- ٥٣..... رابعاً: التهيئة القلبية
- ٥٤..... كيف تتم التهيئة القلبية؟
- ٥٥..... خامساً: الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة
- ٥٧..... سادساً: فهم ما نقرأ
- ٥٨..... سابعاً: الإنصات التام أثناء التلاوة
- ٦٠..... ثامناً: أن نكتفي بالمعنى الإجمالي للآيات
- ٦١..... تاسعاً: التجاوب مع القرآن
- ٦٢..... عاشراً: ترديد الآية التي تؤثر في القلب
- ٦٤..... حادي عشر: استصحاب معنى إيماني

الفصل الرابع

كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن

- ٦٧..... كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن
- ٦٨..... بناء العقيدة

الصفحة

الموضوع

- ٦٩..... ربط القرآن بالحياة
- ٧١..... نماذج إيمانية

الفصل الخامس

نماذج مقترحة لبناء الإيمان من خلال القرآن

- ٧٥..... النموذج الأول: الإيمان بالغيب
- ٧٥..... أهمية الإيمان بالغيب
- ٧٦..... كيف نؤمن بالغيب؟
- ٧٧..... كيف نؤمن بأن القرآن حق؟
- ٨٠..... أعمال يُفضل القيام بها
- ٨٢..... النموذج الثاني: الإيمان بالله الواحد الأحد
- ٨٣..... محاور الإيمان بالوحدانية
- ٨٥..... أعمال يُفضل القيام بها
- ٨٧..... النموذج الثالث: الإيمان باليوم الآخر
- ٨٨..... إثبات المعاد
- ٩١..... أعمال يُفضل القيام بها
- ٩٤..... النموذج الرابع: الدنيا دار امتحان
- ٩٦..... لماذا الاختلاف بين الناس؟!
- ٩٩..... أعمال يُفضل القيام بها
- ١٠١..... النموذج الخامس: الإيمان بالله الوهاب
- ١٠١..... نعم الخلق والإيجاد
- ١٠٢..... نعم الإمداد
- ١٠٤..... نعم الحفظ
- ١٠٤..... نعم الهداية
- ١٠٤..... نعم الثبات

الصفحة

الموضوع

- ١٠٤..... نعم التيسير والتوفيق والسداد
- ١٠٥..... نعم الاجتناء وسبق الفضل
- ١٠٨..... النموذج السادس: الإيمان بالله الودود
- ١٠٩..... لماذا يحبنا الله عَزَّوَجَلَّ؟!
- ١١١..... قبوله اعتذار المعتذرين
- ١١١..... حلمه علينا.....
- ١١٣..... خطابه الودود لعباده
- ١١٣..... نصائحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده
- ١١٥..... رحمته الخاصة بالضعفاء
- ١١٦..... يعلمنا ما نقول ليعفو عنا
- ١١٧..... استشارة هممتنا لفعل الخير
- ١١٨..... تذكيرنا بأخطاء من سبقونا
- ١١٩..... الترغيب والترهيب.....
- ١٢٠..... أعمال يُفْضَلُ القيام بها.....
- ١٢١..... النموذج السابع: الإيمان بالله الرب القيوم
- ١٢٢..... أهمية الإيمان بالله الرب القيوم
- ١٢٤..... ربوبية وقيومية الخلق
- ١٢٤..... ربوبية وقيومية الإمداد
- ١٢٦..... قيومية العلم والإحاطة بكل شيء
- ١٢٧..... قيومية الهداية.....
- ١٢٧..... قيومية العصمة.....
- ١٢٩..... قيومية الولاية والحماية
- ١٢٩..... قيومية القرب والإجابة.....
- ١٣١..... قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين

الصفحة

الموضوع

١٣١.....	أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها
١٣٣.....	النموذج الثامن: الحكم العدل
١٣٣.....	كيف نؤمن بهذا الجانب؟!
١٣٣.....	البداية من العبد
١٣٦.....	عاقبة الذنوب
١٣٧.....	عقوبات الأمم
١٣٨.....	نماذج قرآنية
١٣٩.....	أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها
١٤١.....	النموذج التاسع: الإيمان بالله القهار
١٤١.....	أهمية الإيمان بهذا الجانب
١٤١.....	كيفية بناء الإيمان واليقين بالله القهار
١٤٤.....	نماذج تطبيقية من القرآن
١٤٧.....	أمثلة لأعمال نستصحبها
١٤٨.....	النموذج العاشر: الإيمان بالله الرقيب القريب
١٤٨.....	أهمية الإيمان بالله الرقيب القريب
١٤٩.....	كيفية الإيمان بهذا الجانب
١٥٣.....	أعمال يُفضل القيام بها
١٥٥.....	النموذج الحادي عشر: الإيمان بالله القدير
١٥٥.....	من مظاهر القدرة الإلهية
١٥٦.....	قدرة الخلق والإبداع
١٥٦.....	قدرة الحفظ والإمداد
١٥٩.....	نماذج تطبيقية
١٦١.....	أعمال يُفضل القيام بها
١٦٣.....	النموذج الثاني عشر: الإيمان بالله الحكيم

الصفحة

الموضوع

أهمية الإيمان بالله الحكيم.....	١٦٣
معنى الحكمة.....	١٦٤
من مظاهر الحكمة.....	١٦٤
الحكمة في المخلوقات.....	١٦٤
الحكمة من التشريع.....	١٦٦
الحكمة من الآيات الكونية.....	١٦٧
الحكمة من الابتلاء.....	١٦٧
نماذج قرآنية.....	١٦٩
أعمال يفضل القيام بها.....	١٧٠
النموذج الثالث عشر: الإيمان بالله العزيز.....	١٧٢
أهمية الإيمان بالله العزيز.....	١٧٢
من صور العزة الإلهية.....	١٧٣
عزة المُلْك.....	١٧٣
عزة العلم.....	١٧٥
عزة القضاء.....	١٧٦
عزة الرحمة.....	١٧٦
عزة النصر.....	١٧٦
عزة الحكمة.....	١٧٧
نماذج قرآنية.....	١٧٨
نماذج للعزة الزائفة.....	١٨٠
أعمال يُفضل القيام بها.....	١٨١
النموذج الرابع عشر: الإيمان بالله الغني الحميد.....	١٨٣
الكون العابد.....	١٨٤
النموذج الخامس عشر: عفو الله أو النار.....	١٨٦

الصفحة

الموضوع

١٨٦.....	لن تنجينا أعمالنا.....
١٨٨.....	لماذا الاستغفار بعد الطاعة؟!.....
١٨٩.....	توصيات عملية.....
١٩٠.....	النموذج السادس عشر: الإيمان بالرسول.....
١٩١.....	مثال العبودية.....
١٩٣.....	الإيمان بالرسول وواجبنا نحوه.....
١٩٣.....	كيف ربّى الله رسوله ﷺ على كمال العبودية؟.....
١٩٤.....	مواقف تربوية.....
١٩٧.....	النموذج السابع عشر: الإيمان بالملائكة.....
١٩٧.....	حقيقة الملائكة.....
١٩٧.....	علاقتهم بالبشر.....
١٩٨.....	وظائف الملائكة.....
٢٠١.....	الخاتمة.....
٢٠٣.....	الفهرس.....



